



عناصر الموضوع

۸٦	مفهوم القتال
AY	القتال في الاستعمال القرآني
٨٨	الألفاظ ذات الصلة
9.	مراحل تشريع القتال
1**	أصناف المقاتلين
118	أحكام القتال
١٣٨	نتائج القتال وعواقبه

مفهوم القتال

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل مادة (قتل) تدل على إذلال وإماتة. وهما معنيان متقاربان(١١).

وقال الراغب الأصفهاني: «أصل القتل إزالة الروح عن الجسد كالموت، لكن إن اعتبر بفعل المتولي لذلك يقال: قتلًا وإذا اعتبر بفوت الحياة يقال: موتٌ. يقال: قتله قتلًا وتقتالًا. وقاتله مقاتلة وقتالًا. والقتلة -بالكسر - الحال أو الهيئة التي يقتل عليها، يقال: قتله قتلة سوء. والقتلة -بالفتح - المرة الواحدة. والقتلى: جمع قتيل، على وزن فعيل بمعنى مفعول للمفرد المذكر والمؤنث (٢٠).

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

من المعلوم أن هناك فرقًا في الدلالة والحكم بين القتل والقتال، وقد بين ذلك الفرق بجلاء الشيخ الإمام محمد الصالح العثيمين رحمه الله، وذلك بقوله: «القتل أخص من القتال؛ فهناك فرق بين القتل والقتال، فليس كل من جاز قتاله جاز قتله، ولهذا نقاتل إحدى الطائفتين المقتتلتين حتى تفيء إلى أمر الله، مع أنها مؤمنة لا يحل قتلها. أما القتل فليس يلزم منه مقاتلة الجميع، فقد يكون واحدٌ من هؤلاء يستحق القتل فنقتله ولا نقاتل الجميع، فتبين بهذا أنه لا تلازم بين القتال والقتل، وأن جواز القتال أوسع من جواز القتل؛ لأن القتل لا يكون إلا في أشياء معينة» (٣).

ومن هذا التفريق الدقيق بين المصطلحين يتبين دقة تعريف الإمام أبي بكر ابن العربي رحمه الله في قوله: «هو الصدعن الشيء بما يؤدي إلى القتل» (٤).

وتستعمل كلمة: (القتال) اصطلاحًا بمعنى كلمة: (الجهاد) في اصطلاح الفقهاء، وهو قتال الكفار بالبدن ، وإذا أطلقت كلمة الجهاد فلا يراد بها إلا هذا المعنى عندهم (٥).

⁽٥) انظر: المقدمات الممهدات، ابن رشد ١/ ٣٤٢، أصول العلاقات الدولية في فقه الإمام الشيباني على ١٠٨٠٠.



⁽١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٥٦.

⁽٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٩٣.

⁽٣) الشرح الممتع شرح زاد المستقنع ٢/ ٤٨.

⁽٤) أحكام القرآن ٢/ ٤٢٨.

القتال في الاستعمال القرآني

وردت مادة (قتل) في القرآن الكريم (١٧٠) مرة (١)، يخص موضوع البحث منها(٧١) مرة.

والصيغ التي وردت هي:

المثال	عدد المرات	الصيغة
﴿ وَلَوْ قَنْتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفُرُواْ لَوَلُواْ ٱلْأَدْبَارَ ﴾ [الفتح: ٢٢]	١٦	الفعل الماضي
﴿ أَلَا نُقَائِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُمْ ﴾ [التوبة: ١٣]	**	الفعل المضارع
﴿ فَأَذْهَبُ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاً إِنَّا هَنهُنَا قَامِدُونَ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ الل	١٤	فعل الأمر
وَكَفَى اللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ * وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا \$\ \\ \tag{\tag{0}} \\ \tag{0}	١٣	المصدر

وجاء القتال في القرآن الكريم بمعنى: المقاتلة والمحاربة بين اثنين (٢).

⁽۱) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٥٣٥-٥٣٦، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب القاف ص٩٢٦-٩٢٥.

⁽٢) انظر: الصحاح، الجوهري، ٥/ ١٧٩٧ - ١٧٩٨، مقاييس اللغة، ابن فارس، ٥/ ٥٦-٥١، المعجم الوسط، مجمع اللغة العربية، ٢/ ٧١٥، نزهة الأعين النظائر، ابن الجوزي، ص٤٩٤-٤٩٧، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٤/ ٢٣٨-٢٣٩.

الألفاظ ذات الصلة

الجهاد:

الجهاد لغة:

الجهاد: المبالغة واستفراغ الوسع في الحرب، أو اللسان، أو ما أطاق من شيء، والاجتهاد والتجاهد: بذل الوسع والمجهود (١).

الحهاد اصطلاحًا:

الجهاد والمجاهدة: استفراغ الوسع في مدافعة العدو (٢)، وزاد بعضهم وغلب استعماله شرعا في الدعوة إلى الدين الحق (٣).

الصلة بين الجهاد والقتال:

الجهاد أشمل من القتال من وجوه، أهمها: أن الجهاد يغلب عليه جهاد الحق ضد الباطل والقتال قد يكون من الحق على الباطل والعكس، وأن الجهاد مراتبه أربع، وهي: جهاد النفس، وجهاد الشيطان، وجهاد المنافقين، وجهاد الكافرين، والقتال يكون بالسلاح ضد الكفار.

٢ الحرب:

الحرب لغةً:

الحرب: نقيض السلم، ورجل محرب أي: شجاع، وفلان حرب فلان أي: يحاربه، وحربته تحريبًا أي: حرشته على إنسان فأولع به وبعداوته (٤).

الحرب اصطلاحًا:

«دفع بشدة عن اتساع المدافع بما يطلب منه الخروج؛ فلا يسمح به ويدافع عنه بأشد مستطاع»(٥).

الصلة بين الحرب والقتال:

القتال قد يقتضى هجومًا فتكون المقاتلة، وقد يقتضى الدفاع فتكون المقاتلة أيضًا، وهذا

- (١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٣/ ١٣٤.
- (٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٠٨.
- (٣) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوى ص ١٣٣.
 - (٤) انظر: كتاب العين، الفراهيدي ٣/ ٢١٣.
 - (٥) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص١٣٧.



بخلاف الحرب؛ الذي هو تكتيك إداري حينما يتطلب الدفع بشدة لاتساع المدافع بما يطلب منه الخروج.

٣ البأس:

البأس لغةً:

يطلق على العذاب، والشدة في الحرب، يقال: بؤس، ككرم(١١).

البأس اصطلاحًا:

الشدة على العدو وغلبته في الحرب.

الصلة بين البأس والقتال:

البأس هو ناتج عن الحرب، التي هي جزء لا يتجزأ من مفهوم القتال.

⁽١) انظر: القاموس المحيط، الفيروز آبادي ص٥٣١.

مراحل تشريع القتال

جاء تشريع القتال تحقيقًا للحكمة الربانية في مواجهة الواقع الذي عاصره النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه -رضوان الله تعالى عليهم- بأحكام مرحلية تواجه كل مرحلة بما تتطلبها وبما يتفق مع قدرة المسلمين وعلاقتهم مع الأعداء.

فقد نزل الأمر بالقتال مرتبًا متدرجًا وفق خطوات الإعداد التربوي لهذه الأمة التي حملها الله تعالى مسؤولية إبلاغ هذا الدين للعالمين. فقد كان القتال ممنوعًا في أول الإسلام، ثم صار مأذونًا فيه ردًا للعدوان، ثم مأذونًا فيه نم مأمورًا به أمرًا عامًا مطلقًا.

وقد أجمل العلامة ابن قيم الجوزية رحمه الله مراحل تشريع القتال بكلمات جامعة دقيقة في كتابه «زاد المعاد» فعقد فيه فصلًا بعنوان «ترتيب سياق هديه مع الكفار والمنافقين من حين بعث إلى حين لقي الله عز وجل» قال فيه:

أول ما أوحى إليه ربه تبارك وتعالى: أن يقرأ باسم ربه الذي خلق، وذلك أول نبوته، فأمره أن يقرأ في نفسه ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ. ثم أنزل عليه: ﴿يَاأَيُّهُ الْمُدَّرِّرُ ﴾. فنبأه بقوله: ﴿أَفْرَأُ ﴾ وأرسله بـ ﴿يَاأَيُّهُا الْمُدَّرِّرُ ﴾. ثم أمره أن ينذر عشيرته

الأقربين، ثم أنذر قومه، ثم أنذر من حولهم من العرب، ثم أنذر العرب قاطبة، ثم أنذر العالمين. فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية، ويؤمر بالكف والصبر والصفح.

- ثم أذن له في الهجرة وأذن له في القتال،
 ثم أمره أن يقاتل من قاتله ويكف عمن
 اعتزله ولم يقاتله.
- تم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله.
- ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد
 ثلاثة أقسام: أهل صلح وهدنة؛ وأهل
 حرب؛ وأهل ذمة.

فأمر بأن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم وأن يوفي لهم به ما استقاموا على العهد، فإن خاف منهم خيانة نبذ إليهم عهدهم ولم يقاتلهم حتى يعلمهم بنقض العهد، وأمر أن يقاتل من نقض عهده.

ولما نزلت: (سورة براءة) نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها، فأمره فيها أن يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية أو يدخلوا في الإسلام، وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم، فجاهد الكفار بالسيف والسنان، والمنافقين بالحجة واللسان(۱).

⁽١) زاد المعاد، ابن القيم ٣/١٤٣.

لذلك يتناول هذا المبحث التطور التاريخي للمراحل التي شرع فيها القتال. ويمكن أن نجملها بأربعة مراحل:

أولًا: مرحلة الكف عن القتال

بدأ الوحي يتنزل على رسول الله صلى الله عليه الله عليه وسلم منذ أن فاجأه جبريل عليه السلام بقوله تعالى: ﴿أَقْرَأُ بِأَسِّهِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ اللهِ عَلَقَ اللهِ العلق: ١].

ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ الرسالة والدعوة. ثم أمره الله سبحانه وتعالى بتبليغ الرسالة وإنذار قومه بقوله: ﴿يَالَبُهُا ٱلمُدَّرِّرُ أَنَّ أَنْذِرُ اللهِ المدرد: ١-٢].

فبدأ بدعوة أهل بيته، ثم بدعوة عشيرته الأقربين وقومه بالحسنى والموعظة، وأمره مع ذلك بالصفح والإعراض عن المشركين، فقال تعالى: ﴿ فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ المشركين ﴾ [الحجر: ٩٤].

وَقَالَ سبحانه وتعالى: ﴿ فَأَصْفَحَ الصَّفَحَ الصَّفَحَ الْمَنْ الْمَلِمُ ﴾ الْجَمِيلُ ﴿ اللَّهُ الْمَلِمُ ﴾ [الحجر: ٨٥-٨٦].

مُسْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

وقال: ﴿ أَدَّعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ أَ إِلَّا رَبِّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِةٍ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِةٍ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِةٍ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْمَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥].

وفي هذه المرحلة -ويمكن أن نقول في هاتين المرحلتين المتصلتين في مكة المكرمة - لم يكن هناك أمر بقتال دفعًا أو هجومًا. ولذلك قال الإمام أبو بكر الرازي الجصاص: «لم تختلف الأمة أن القتال كان محظورًا قبل الهجرة»(١).

ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿فَأَعَفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحُ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة: ١٣].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَاخَاطَبَهُمُ ٱلْجَدِهِلُونَ قَالُواْ سَلَنَمًا ﴾ [الفرقان: ٦٣].

وقوله تعالى: ﴿ فَإِنْ حَآجُوكَ فَقُلْ أَسَلَتُ ثُورَةً اللَّهِ اللَّهِ مَا اللَّهِ وَمَنِ النَّبَعَنُ وَقُل لِلَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتنَبَ وَالْأَمْتِ مَا اللَّهِ وَمَنِ النَّبَعَنُ وَقُل لِلَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتنَبَ وَالْأَمْتِ مَا اللَّهَ الْمَتَكَوالْ فَقَدِ الْمُتَكَدّوا فَا لَهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهِ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهِ اللَّهُ اللَّلْمُ اللَّهُ اللللَّهُ اللَّهُ اللّهُ ال

وقوله تعالى: ﴿ أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَلِلْاً الَّذِي بِيَّاكُ حَسِنُ فَلِلْاً الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَوَةً كَأَنَّهُ وَلِيُّ حَسِيمٌ ﴿ اللَّهِ مَا يُلَقَّنِهَا إِلَّا أَلَنِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّنَهَا إِلَّا ذُو حَظِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٤-٣٥].

ولكن كبر على المشركين ما يدعوهم

⁽١) أحكام القرآن، الجصاص ٣/ ٢٥٧.

إليه، فناصبوه العداء، وتفننوا في صنوف الإيذاء والبلاء، يصبونهما على المؤمنين، حتى وصل بهم الأمر أن يتآمروا على النبي صلى الله عليه وسلم لتصفيته جسديًا.

ولما قال عبدالرحمن بن عوف وأصحاب له: (يا رسول الله كنا في عزة ونحن مشركون فلما آمنا صرنا أذلاء! فقال عليه الصلاة والسلام: (إني أمرت بالعفو، فلا تقاتلوا القوم)(١).

وقد كانت نفوس بعض المسلمين تتشوف إلى الإذن بالجهاد ليميلوا على المشركين ميلة واحدة وليدفعوا عن أنفسهم العدوان الواقع عليهم؛ فقد قال العباس بن عبادة بن نضلة ليلة بيعة العقبة: (والله الذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غدًا بأسيافنا؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم)

قال الإمام الحافظ ابن كثير الدمشقي رحمه الله: «كان المؤمنون في ابتداء الإسلام وهم بمكة مأمورين بالصفح والعفو عن المشركين والصبر إلى حين، وكانوا يتحرقون ويودون لو أمروا بالقتال ليشتفوا من أعدائهم، ولم يكن الحال إذ ذاك مناسبًا لأسباب كثيرة، منها: قلة عددهم بالنسبة إلى كثرة عدد عدوهم، ومنها كونهم كانوا في بلدهم وهو بلد حرام وأشرف بقاع الأرض، فلم يكن الأمر بالقتال فيه ابتداء لاثقًا. فلهذا لم يؤمر بالجهاد إلا بالمدينة، لما صارت لهم دارٌ ومنعة وأنصار»(").

ويقف الأستاذ سيد قطب رحمه الله عند آية سورة النساء يتلمس حكمة هذا الموقف، والأمر بالكف عن القتال، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، والصبر والاحتمال حتى وبعض المسلمين يلقى من الأذى والعذاب ما لا يطاق، وبعضهم يتجاوز العذاب طاقته فيفتن عن دينه. وبعضهم لا يحتمل الاستمرار في العذاب فيموت تحت وطأته يقول قولة المؤمن الذي يتحرز عن الجزم فيما لا يمكن الجزم به لئلا يقول على

قال الهيثمي في المجمع: ٦/ ٤٥: رجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع.

وانظر: السيرة، ابن إسحاق ص ٤٤٨، الطبقات الكبرى، ابن سعد ٢٢٣/١، تاريخ الأمم والملوك، الطبري ٢/ ٣٦٤.

⁽٣) تفسير القرآن العظيم، أبن كثير ٢/ ٣٥٩.

⁽۱) أخرجه النسائي في سننه، أول كتاب الجهاد، ٣/٦.

وصححه الحاكم على شرط البخاري، ٢/٢٦ و ٣٠٧، ولم يتعقبه الذهبي.

⁽٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٣/٤٦٢.

الله بغير علم، فحسبه أن يشير إلى ما يراه من حكمة ثم يكل العلم الحقيقي إلى الله تعالى.

أما حكمة هذا: فلسنا في حلٍ من الجزم بها؛ لأننا حينئذ نتألى على الله ما لم يبين لنا من حكمة، ونفرض على أوامره أسبابًا وعللًا، قد لا تكون هي الأسباب والعلل الحقيقية، أو قد تكون ولكن يكون وراءها أسباب وعلل أخرى لم يكشف لنا عنها، ويعلم سبحانه أن فيها الخير والمصلحة.

وبهذا الأدب الواجب نتناول حكمة عدم فرض الجهاد في مكة وفرضيته في المدينة نذكر ما يتراءى لنا من حكمة وسبب على أنه مجرد احتمال وندع ما وراءه لله، لا نفرض على أمره أسبابًا وعللًا، لا يعلمها إلا هو ولم يحددها هو لنا ويطلعنا عليها بنص صريح! إنها أسباب اجتهادية تخطئ وتصيب، وتنقص وتزيد، ولا نبغي بها إلا مجرد تدبر أحكام الله، وفق ما تظهره لنا الأحداث في مجرى الزمان:

- وربما كان ذلك لأن الفترة المكية كانت فترة تربية وإعداد في بيئة معينة، لقوم معينين، وسط ظروف معينة.
- وربما كان ذلك أيضًا، لأن الدعوة السلمية أشد أثرًا وأنفذ، في مثل بيئة قريش ذات العنجهية والشرف والتي قد يدفعها القتال معها -في مثل هذه

الفترة - إلى زيادة العناد وإلى نشأة ثارات دموية جديدة.

- 🥮 وربما كان ذلك أيضًا، اجتنابًا لإنشاء معركة ومقتلة في داخل كل بيت، فلم تكن هناك سلطة نظامية عامة، هي التي تعذب المؤمنين وتفتنهم، إنما كان ذلك موكولًا إلى أولياء كل فرد، يعذبونه هم ويفتنونه و «يؤدبونه»! ومعنى الإذن بالقتال -في مثل هذه البيئة- أن تقع معركة ومقتلة في كل بيت، ثم يقال: هذا هو الإسلام! ولقد قيلت حتى والإسلام يأمر بالكف عن القتال! فقد كانت دعاية قريش في الموسم، في أوساط العرب القادمين للحج والتجارة: إن محمدًا يفرق بين الوالد وولده فوق تفريقه لقومه وعشيرته! فكيف لو كان كذلك يأمر الولد بقتل الوالد، والمولى بقتل الولى في كل بيت وكل محلة؟
- وربما كان ذلك أيضًا، لما يعلمه الله من أن كثيرين من المعاندين الذين يفتنون أوائل المسلمين عن دينهم، ويعذبونهم هم بأنفسهم سيكونون من جند الإسلام المخلص، بل من قادته ألم يكن عمر بن الخطاب من بين هؤلاء؟!
- 🥮 وربما كان ذلك، أيضًا، لأن النخوة

العربية، في بيئة قبلية، من عادتها أن تثور للمظلوم، الذي يحتمل الأذى، ولا يتراجع! وبخاصة إذا كان الأذى واقعا على كرام الناس فيهم وقد وقعت ظواهر كثيرة تثبت صحة هذه النظرة -في هذه البيئة - فابن الدغنة لم يرض أن يترك أبا بكر -وهو رجل كريم-يهاجر ويخرج من مكة، ورأى في ذلك عارًا على العرب! وعرض عليه جواره وحمايته.

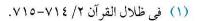
- وربما كان ذلك أيضًا، لقلة عدد المسلمين حينذاك، وانحصارهم في مكة، حيث لم تبلغ الدعوة إلى بقية الجزيرة. أو بلغت أخبارها متناثرة حيث كانت القبائل تقف على الحياد، من معركة داخلية بين قريش وبعض أبنائها، حتى ترى ماذا يكون مصير الموقف.
- في الوقت ذاته لم يكن هناك ضرورة قاهرة ملحة، لتجاوز هذه الاعتبارات كلها، والأمر بالقتال ودفع الأذى. لأن الأمر الأساسي في هذه الدعوة كان قائمًا -وقتها- ومحققًا، هذا الأمر الأساسي هو «وجود الدعوة» (١).

ثانيًا: مرحلة الإذن بالقتال:

أذن الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى المدينة، وبدأ بتأسيس المجتمع الإسلامي الجديد فيها، وبدأ عهد للإسلام مجيد. ومع هذا لم يشرع القتال في أول العهد بالمدينة، وإنما كان هناك أيضًا أمر بالكف والصبر الجميل، وعقد رسول الله صلى الله عليه وسلم مع اليهود من أهلها ومن بقي على الشرك من العرب فيها وفيما حولها، معاهدة عرفت بصحيفة المدينة (٢).

ولعل الحكمة في عدم القتال في أول العهد في المدينة تظهر أيضًا -علاوة على ما سبق- في أمرين:

الأول: لأن هناك مجالًا للتبليغ والبيان، لا تقف له سلطة سياسية تمنعه وتحول بين الناس وبينه، فقد اعترف الجميع بالدولة المسلمة الجديدة وبقيادة رسول الله صلى الله عليه وسلم في تصريف شؤونها السياسية. فنصت المعاهدة على ألا يعقد أحد منهم صلحًا ولا يثير حربًا، ولا ينشئ علاقة خارجية إلا بإذن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان واضحا أن السلطة الحقيقية في المدينة في يد القيادة المسلمة، فالمجال أمام الدعوة مفتوح، والتخلية بين





⁽۲) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام ١/٥٠١، زاد المعاد، ابن القيم ٣/ ٦٥-٦٦، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، محمد حميد الله ص٥٧.

الناس وحرية الاعتقاد قائمة.

الثاني: إن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يريد التفرغ -في هذه المرحلة - لقريش التي تقوم معارضتها لهذا الدين حجر عثرة في وجه القبائل الأخرى الواقفة في حالة انتظار لما ينتهي إليه الأمر بين قريش وبعض بنيها(١)!

ولكن هذا الموقف كان مما زاد في عناد المشركين وزاد في كيدهم وعدوانهم وتآمرهم. وعند ذلك أذن الله تعالى للمسلمين بالقتال دفعًا، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ أَذِنَ لِلّذِينَ يُقَنَتُلُونَ بِأَنّهُمْ شُلِمُواً وَتعالى: ﴿ أَذِنَ لِلّذِينَ يُقَنَتُلُونَ بِأَنّهُمْ شُلِمُواً وَتعالى: ﴿ أَذِنَ لِلّذِينَ يُقَنَتُلُونَ بِأَنّهُمْ شُلِمُواً وَلَوَّا لَلَهُ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرُ ﴿ آَ اللّهَ اللّهِ النّاسُ بَعْضَهُم بِنَعْنِ لَمُلَوْمَنَ اللّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللّهِ النّاسُ بَعْضَهُم بِنَعْنِ لَمُلُومَتُ اللّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللّهِ النّاسُ بَعْضَهُم بِنَعْنِ لَمُلَومَتُ اللّهُ وَلَوْلَا دَنِّنَا وَكَنْ وَمَسَعِدُ يُذَكّرُ فَهَا اللّهُ اللّهُ لَقُوعُ عَزِيزٌ ﴿ آَ اللّهِ اللّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَلَا اللّهُ لَقُوعُ عَزِيزٌ ﴿ وَلَيَنْ إِن مُلَكّرُهُ وَلَا اللّهُ لَقُوعُ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٣٩-٤١].

فكانت هذه الآية الكريمة أول آية نزلت في الجهاد -كما قال غير واحد من العلماء- فيها إذن بالقتال لدفع العدوان ورده عن المؤمنين، لم يكن فيها وجوبٌ ولا أمرٌ.

ثالثًا: مرحلة القتال دفاعًا:

ثم فرض الله تعالى القتال على المسلمين بعد ذلك إذا كانت البداية من الكفار،

ونقل الإمام محيي السنة البغوي (٢) عن المفسرين في هذه الآية أنهم قالوا: «كان مشركو أهل مكة يؤذون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يزالون محزونين من بين مضروب ومشجوج، ويشكون ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول لهم: اصبروا فإني لم أومر بالقتال، فيقول لهم: اصبروا فإني لم أومر بالقتال، فأزل الله عز وجل هذه الآية (٣). وهي أول أية أذن الله فيها بالقتال، فنزلت هذه الآية قوم بأعيانهم خرجوا مهاجرين من مكة إلى المدينة، فكانوا يمنعون فأذن الله لهم في قتال الكفار الذين يمنعونهم من الهجرة».

⁽۲) معالم التنزيل ٥/ ٣٨٨–٢٨٩.

قال ابن حجر في الكافي الشافي ص ١١٣: لم أجده هكذا. وعزاه الواحدي في الوسيط للمفسرين، وهو منتزع من أحاديث، أقربها ما أخرجه ابن أبي حاتم من طريق بكير بن معروف عن مقاتل بن حيان قوله: (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا)، وذلك أن مشركي أهل مكة كانوا يؤذون المسلمين بمكة، فاستأذنوا النبي صلى الله عليه وسلم في قتالهم بمكة، فنهاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك، فلما خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى فلما خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أنزل الله عليه: (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا).

⁽١) في ظلال القرآن ٣/ ١٤٣٩.

قال الإمام أبو جعفر ابن جرير الطبري رحمه الله: «اختلف أهل التأويل في تأويل هذه الآية: فقال بعضهم: هذه الآية هي أول آية نزلت في أمر المسلمين بقتال أهل الشرك. وقالوا: أمر فيها المسلمون بقتال من قاتلهم من المشركين، والكف عمن كف عنهم، ثم نسخت بـ «براءة» (١).

(١) أسرف بعض العلماء في قضية النسخ، وجعلوا آية سورة براءة -أو آية السيف كما يقولون- ناسخة لآيات كثيرة تأمر بالصفح أو تنهى عن المسالمة.وهذا مردود عند المحققين من العلماء. فقد قال الطبرى رحمه الله في التفسير ١٠/ ١٣٥: إن الناسخ الذي لا شك قيه من الأمر، هو ما كان نافيًا كل معانى خلافه، الذي كان قبله فأما ما كان غير نافّ جميعه، فلا سبيل إلى العلم بأنه ناسخ إلا بخبر من الله جل وعز، أو من رسوله صلى الله عليه وسلم، وليس في قوله: (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) دلالةٌ على الأمر بنفي معاني الصفح والعفو.

وقال الزركشي، رحمه الله، في كتابه البرهان في علوم القرآن ٢/ ٤٣ - ٤٤: ما لهج به كثير من المفسرين في الآيات الآمرة بالتخفيف من أنها منسوخة بآية السيف قول ضعيف، فهو من المنسأ - بضم الميم - بمعنى: أن كل أمر ورد يجب امتثاله في وقت ما، لعلة توجب ذلك الحكم، ثم ينتقل بانتقال تلك

فعن الربيع قال: هذه أول آية نزلت في القتال بالمدينة، فلما نزلت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقاتل من يقاتله، ويكف عمن كف عنه، حتى نزلت «براءة».

وقال آخرون: بل ذلك أمرٌ من الله تعالى ذكره للمسلمين بقتال الكفار، لم ينسخ. وإنما الاعتداء الذي نهاهم الله عنه، هو نهيه عن قتل النساء والذراري. قالوا: والنهي عن قتلهم ثابتٌ حكمه اليوم، فلا شيء نسخ من حكم هذه الآية. فعن يحيى بن يحيى الغساني، قال: كتبت إلى عمر بن عبد العزيز أسأله عن قوله: «وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين»، قال: فكتب إلى: «إن ذلك في النساء والذرية ومن لم ينصب لك الحرب منهم».

ثم قال رحمه الله: «وأولى هذين القولين بالصواب، القول الذي قاله عمر بن عبد العزيز؛ لأن دعوى المدعي نسخ آية يحتمل أن تكون غير منسوخة، بغير دلالة على صحة دعواه، تحكم . والتحكم لا يعجز عنه أحد»(٢).

العلة إلى حكم آخر، ليس بنسخ، إنما النسخ: الإزالة، حتى لا يجوز امتثاله أبدًا. فليس حكم المسايفة ناسحًا لحكم المسالمة، بل كل منهما يجب امتثاله في وقته.

⁽۲) جامع البيان، الطبري ٣/ ٥٦١ - ٥٦٣. وانظر: معالم التنزيل، البغوي ١/ ٢١٢ -٢١٤، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٢٦٢،

فلم يأمر الله تعالى المسلمين بقتال من طلب مسالمتهم ولا من هادنهم، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوالِلسَّلْمِ فَاجْنَحٌ لَمَا وَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُو السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [الأنفال: ٢١].

وينطوي في هذه المرحلة الأمر بالقتال في بعض الأزمنة والأمكنة دون غيرها:

فقد أمر الله تعالى بالقتال بشرط انسلاخ الأشهر الحرم، كما قال تعالى: ﴿ فَإِذَا النَّسُهُ الْحَرْمُ، كَمَا قَالَ تعالى: ﴿ فَإِذَا النَّسُوكِينَ حَيَّثُ السَّلَخَ الأَثْمُهُ لَلْكُرُمُ فَأَقْنُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيَّثُ وَجَدَّتُمُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ وَجَدَّتُمُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ صَدَّ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوْةُ وَمَاتَوُا الصَّلَوْةُ وَمَاتَوُا الرَّكُوةُ وَمَاتُوا السَّلَوْةُ وَمَاتَوا التَّهَا عَنُورٌ رَحِيمٌ ﴾ الرَّكُوةُ وَخَلُوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ الله عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [التوبة: ٥].

وقد اختلف العلماء في تحريم القتال في الأشهر الحرم؛ فقال قوم: كان كبيرًا ثم نسخ بقوله تعالى: ﴿وَقَلَئِلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [التوبة: ٣٦].

كأنه يقول: فيهن وفي غيرهن. وهو قول قتادة، وعطاء الخراساني، والزهري، وسفيان الثوري، وقالوا: إن النبي صلى الله عليه وسلم غزا هوازن بحنين، وثقيفًا بالطائف، وحاصرهم في شوال وبعض ذي القعدة.

وقال آخرون: إنه غير منسوخ. قال ابن

تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/٢/١- ٥٢٢، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص

جريج: حلف بالله عطاء بن أبي رباح: ما يحل للناس أن يغزوا في الحرم، ولا في الأشهر الحرم، إلا أن يقاتلوا فيها، وما نسخت (١).

ونهى عن القتال عند المسجد الحرام فقال: ﴿ وَاَفْتُلُوهُمْ حَنْتُ ثَغِفْنُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَنْتُ أَغَفْنُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَنْتُ أَشَدُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَنِيلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْمُرَامِ حَقّى يُقَنِيلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَننُلُوكُمْ عَندَ الْمَسْجِدِ الْمُرَامِ حَقّى يُقَنيِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَننُلُوكُمْ فَا الْمَسْجِدِ الْمُرَامِ حَقّى يُقَنيِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَننُلُوكُمْ فَا الْمَسْجِدِ الْمُرَامِ حَقّى يُقَنيِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَننُلُوكُمْ فَا الْمَقْرَةِ (١٩١].

قال محيي السنة البغوي: «وكان هذا في ابتداء الإسلام، كان لا يحل بدايتهم بالقتال في البلد الحرام، ثم صار منسوخًا بقوله تعالى: ﴿ وَقَائِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتَانَةٌ ﴾ [الأنفال: ٣٩].

هذا قول قتادة. وقال مقاتل بن حيان: قوله ﴿ وَاَقْتُلُوهُمْ مَيْتُ ثَيْفَنْنُوهُمْ ﴾ أي حيث أدركتموهم في الحل والحرم، صارت هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿ وَلَا نُقَائِلُوهُمْ عِندَ الْمُسَجِدِ الْفُرَامِ حَتَى يُقَائِلُوكُمْ فِيهِ ﴾ ثم نسختها آية السيف في براءة، فهي ناسخة منسوخة. وقال مجاهد وجماعة: هذه الآية محكمة، ولا يجوز الابتداء بالقتال في الحرم () () .

رابعًا: مرحلة القتال مطلقًا:

ثم أمر الله تعالى المسلمين بالقتال مطلقًا للمشركين كافة، إذ هم يقاتلونهم كافة.

⁽١) معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٥٥.

⁽٢) المصدر السابق ١/ ٢١٤.

فقال الله تعالى: ﴿وَاقْتَلُوهُمْ حَيْثُ ثَغِفْنُوهُمْ وَالْقَلُوهُمْ حَيْثُ ثَغِفْنُوهُمْ وَالْفِئْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتَلِ وَالْمَنْخُوهُمْ وَالْفِئْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتَلِ وَلَا نُقَتَلُوهُمْ عِنْدَ الْمُسَجِدِ الْمُرَامِ حَقَّى يُقَامِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَلْنُلُوهُمْ عَقَى لَا قَلْنُوهُمْ حَقَى لَا فَإِن اَنْهُوا فَلا عُدُونَ اللهِ عَفُورٌ نَحِيمٌ ﴿ اللهِ وَالْنِلُوهُمْ حَقَى لَا تَكُونَ فِئْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِن النَهُوا فَلا عُدُونَ إِلّا تَكُونَ فِلا اللهِ مَنْ اللهِ عَلَى اللهِ قَالِ النَهْوَا فَلا عُدُونَ إِلّا عَلَى اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهُ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهُ اللهِ اللهُ ال

وقال تعالى: ﴿وَقَانِتِلُواْ فِي سَكِيدِلِ ٱللّهِ وَأَعْلَمُواَ أَنَّ ٱللّهَ سَمِيعُ عَلِيكُمُ ﴾ [البقرة: ٢٤٤].

وقال تعالى: ﴿ وَإِن لَكُتُوّا أَيْمَننَهُم مِنْ الْمُعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَنِلُوّا أَمِننَهُمْ فَقَنِلُوّا أَمِنَ لَهُمْ لَقَالُمُمْ لَا أَيْمَن لَهُمْ لَعَلَّهُمْ مَا أَيْمَن لَهُمْ لَعَلَّهُمْ مَا أَيْمَن لَهُمْ لَعَلَّهُمْ مَا نَصَعُوْا الْمُعْدِينَ اللّهُ الْمُرْسُولِ وَهُم الْمَعْدَنَهُمْ وَهَمْ مَا فَقَلَدَ مُوّا الْمُسُولِ وَهُم اللّهُ الْمَثْنَةُ مُوّا اللّهُ عَلَيْهِمْ وَيَشَفِ صُدُورَ قَوْمٍ وَيُشُولُ اللّهُ عَلِيمٌ مَكَوْدُ قَوْمٍ وَيُشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ وَيُشْفِ مُن اللّهُ عَلَيْم عَلِيمٌ عَكِيمُ اللّهُ عَلِيم عَكِيمُ اللّهُ عَلِيم عَكِيمُ اللّهُ عَلِيم عَكِيمُ اللّه عَلِيم عَكِيمُ اللّه عَلِيم عَكِيمُ اللّه عَلِيم عَكِيمُ اللّه عَلَيم عَكِيمُ اللّه عَلِيم عَكِيمُ اللّه عَلِم عَكِيمُ اللّه عَلَيم عَكِيمُ اللّه عَلَيم عَكِيمُ اللّه عَلَيم عَكِيمُ اللّه عَلَيم عَكِيمُ عَلَيم اللّه عَلَيم عَكِيمُ اللّه عَلَيم عَكِيمُ اللّه عَلَيم عَكِيمُ اللّه عَلَيم عَكِيمُ اللّه اللّه عَلَيم عَلَيم عَلَيم عَلَيم اللّه عَلَيم عَلَيم عَلَيم عَلَيم عَلَيم عَلَيم عَلَيم اللّه عَلَيم عَلَيم عَلَيم عَلَيم اللّه عَلَيم عَلَيمُ عَلَيم ع

وقال تعالى: ﴿ قَانِلُواْ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ مَا يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَا يُحْرِّمُونَ مَا يُؤْمِنُونَ مَا حَرَّمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ، وَلَا يَدِينُونَ فِي دِينَ الْحَقِّ مِنَ اللّينِ أَوْمُواْ الْحِزْيَةَ اللّهِ وَهُمْ صَنْغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَدَيْلُوا

الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقْنِلُونَكُمُّمُ كَا نُقْنِلُونَكُمُّمُ كَالْمُنْقِينَ ﴾ [التوبة: ٣٦].

فكانت هذه المرحلة الأخيرة التي استقر عليها أمر الجهاد، إذ إن سورة التوبة -وفيها آية السيف أو آية الجزية- من أواخر القرآن الكريم نزولًا(١).

قال الإمام أبو جعفر الطحاوي: «فأمر بقتال المخالفين لدين الإسلام كافة، حتى لا يكون دين إلا دين الله تعالى الذي تعبد به عباده»(٢).

وهذا هو الذي خلص إليه أيضًا العلامة المحقق ابن قيم الجوزية رحمه الله حيث قال بعد أن تتبع السياق التاريخي لهدي النبي صلى الله عليه وسلم مع الكفار والمنافقين من حين بعث إلى حين لقي الله عز وجل.

قال: «فاستقر أمر الكفار معه بعد نزول براءة على ثلاثة أقسام: محاربين له، وأهل عهد، وأهل ذمة.

ثم آلت حال أهل العهد والصلح إلى الإسلام، فصاروا معه قسمين: محاربين وأهل ذمة.

والمحاربون له خائفون منه. فصار

⁽۱) انظر: أحكام القرآن للجصاص ۲٥٦/۱ - ۲٥٦/، أحكام القرآن، ابن العربي ٢٥٦/١، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣٨/٣.

⁽۲) اختلاف العلماء، الطحاوي، اختصار الجصاص ٣/ ٤٢٦.

أهل الأرض معه ثلاثة أقسام: مسلمٌ مؤمن الإسلامي، وعلاقات المجتمع المسلم به، ومسالمٌ له آمنٌ -أهل ذمة- وخائف بالمجتمعات الأخرى»(٢). محار ب»(۱).

> وهذا النظر للمراحل التي مربها تشريع القتال والجهاد يشير إلى الأحكام المرحلية ليست أحكامًا نهائية تنسخ غيرها مثلًا أو تتعارض معها، فإن الإسلام يواجه كل مرحلة بما يناسبها. يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله في تعريفه بسورة التوبة «براءة»: «هذه السورة مدنية، من أواخر ما نزل من القرآن-إن لم تكن هي آخر ما نزل من القرآن- ومن ثم قد تضمنت أحكامًا نهائية في العلاقات بين الأمة المسلمة وسائر الأمم في الأرض والسورة- بهذا الاعتبار- ذات أهمية خاصة في بيان طبيعة المنهج الحركي للإسلام ومراحله وخطواته- حين تراجع الأحكام النهائية التي تضمنتها مع الأحكام المرحلية التي جاءت في السور قبلها- وهذه المراجعة تكشف عن مدى مرونة ذلك المنهج، وعن مدى حسمه كذلك.

> وبدون هذه المراجعة تختلط هذه الصور والأحكام والقواعد كما يقع كلما انتزعت الآيات التي تتضمن أحكامًا مرحلية فجعلت نهائية ثم أريد للآيات التي تتضمن الأحكام النهائية أن تفسر وتؤول لتطابق تلك الأحكام المرحلية وبخاصة في موضوع الجهاد

⁽٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٦٩١.

⁽١) انظر: زاد المعاد، ابن القيم ٣/ ١٦٠.

أصناف المقاتلين

ألمحت فيما سبق إلى أن القتال ظاهرة اجتماعية، عرفتها البشرية منذ عهدها الأول، وإلى أن القتال في الإسلام الذي هو الجهاد في سبيل الله -كما تقدم- له غاية وهدف، ولذلك تنوع القتال بحسب أصناف المقاتلين، وفيما يأتي بيان لذلك بإيجاز، في النقاط الآتية:

أولًا: الكفار وأئمتهم:

إذا أطلقت كلمة القتال، فإن أول ما يتبادر إلى الأذهان هو قتال الكافرين والمشركين بعامة، وقد تواترت الآيات القرآنية الكريمة في ذلك، فقال الله تعالى مبينًا أن شأن الكفار هو قتال المؤمنين، فكان من الواجب قتالهم لرد العدوان ودرء الفتنة عن المسلمين: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَيْفُنُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِنْ حَيْثُ الْقَتْلُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم الْقَلْلُوهُمْ كَنْ الْقَتْلُوهُمْ وَالْفَرْفُومُ الْقَلْلُوهُمْ مَنْ الْقَتْلُوهُمْ وَالْفَرْفُومُ الله عَنْ الْقَتْلُوهُمْ فَا الله وَالله الله وَالله الله وَالله والله والله

وهذا أمرٌ بقتالهم، أينما وجدوا في كل وقت، وفي كل زمان قتال مدافعة، وقتال مهاجمة، ثم استثنى من هذا العموم قتالهم عند السّمود إلا أن

يبدؤوا بالقتال، فإنهم يقاتلون جزاءً لهم على اعتدائهم، وهذا مستمر في كل وقت، حتى ينتهوا عن كفرهم فيسلموا، فإن الله يتوب عليهم، ولو حصل منهم ما حصل من الكفر بالله والشرك في المسجد الحرام، وصد الرسول والمؤمنين عنه، وهذا من رحمته وكرمه بعباده.

ولما كان القتال عند المسجد الحرام، يتوهم أنه مفسدة في هذا البلد الحرام، أخبر تعالى أن المفسدة بالفتنة عنده بالشرك، والصدعن دينه، أشد من مفسدة القتل، فليس عليكم – أيها المسلمون – حرج في قتالهم. ويستدل بهذه الآية على القاعدة المشهورة، وهي: «أنه يرتكب أخف المفسدتين، لدفع أعلاهما».

ثم ذكر تعالى المقصود من القتال في سبيله، وأنه ليس المقصود به، سفك دماء الكفار، وأخذ أموالهم، ولكن المقصود به: أن ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ تعالى، فيظهر دين الله تعالى على ساثر الأديان، ويدفع كل ما يعارضه، من الشرك وغيره، وهو المراد بالفتنة، فإذا حصل هذا المقصود، فلا قتل ولا قتال، ﴿وَإِنِ النَّهُوا ﴾ عن قتالكم عند المسجد الحرام ﴿وَلَلا عُدُونَ إِلَّا عَلَ الْقَالِمِينَ ﴾ المسجد الحرام ﴿وَلَلا عُدُونَ إِلَّا عَلَ الْقَالِمِينَ ﴾ المسجد الحرام ﴿وَلَلا عُدُونَ إِلَّا عَلَ الْقَالِمِينَ ﴾ المسجد الحرام ﴿وَلا عُدَاء، إلا من ظلم منهم، فإنه يستحق المعاقبة، بقدر ظلمه (۱).

⁽۱) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٨٩.

قال الإمام أبو جعفر الطبري: يعني تعالى ذكره بذلك: واقتلوا –أيها المؤمنون – الذين يقاتلونكم من المشركين حيث أصبتم مقاتلهم وأمكنكم قتلهم، وذلك هو معنى قوله: «حيث ثقفتموهم»أي: اقتلوهم في أي مكان تمكنتم من قتلهم، وأبصرتم مقاتلهم. وأما قوله: «وأخرجوهم من حيث أخرجوكم» فإنه يعنى بذلك المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم ومنازلهم بمكة، فقال لهم تعالى ذكره: أخرجوا هؤلاء الذين يقاتلونكم – وقد أخرجوكم من دياركم – من مساكنهم وديارهم كما أخرجوكم منها والشرك بالله أشد من القتل(١).

وتأتي الآيات الكريمة لتأكيد هذا المعنى فيقول الله تعالى: ﴿ وَقَائِلُوهُمْ حَقَىٰ لاَ تَكُونَ اللّهِ يَعَالَى: ﴿ وَقَائِلُوهُمْ حَقَىٰ لاَ تَكُونَ اللّهِ يَنْ كُلُهُ مَا لَيْكُونَ اللّهِ يَنْ كُلُهُ لَهُ لِمَا يَمْمَلُونَ لِلّهَ فِمَا يَمْمَلُونَ لَلّهَ فِمَا يَمْمَلُونَ لَلّهَ فِمَا يَمْمَلُونَ بَعِيدِ * [الأنفال: ٣٩].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرَبُ الرِّقَابِ حَقَّ إِذَا أَفْسَتُمُومُ فَشُدُوا الْوَثَاقَ فَإِمّا مَثّا بَعْدُ وَإِمّا فِلَـ حَقّ نَضَعَ الْمُرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ لَمَسَاءُ اللّهُ لَا نَصَرَ مِنْهُمْ وَلَذِينَ لِيَبْلُواْ بَعْضَكُم بِبَعْفِي لللهِ مَلَى يُفِيلُ أَعْمَلُهُمْ ﴾ [محمد: وَاللّذِينَ قُيلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَلَن يُفِيلُ أَعْمَلُهُمْ ﴾ [محمد: 3].

يقول تعالى ذكره لفريق الإيمان به ويرسوله: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بالله

ورسوله من أهل الحرب، فاضربوا رقابهم حتى إذا غلبتموهم وقهرتم من لم تضربوا رقبته منهم، فصاروا في أيديكم أسرى، فشدوهم في الوثاق كيلا يقتلوكم، فيهربوا منكم. فإذا أسرتموهم بعد الإثخان، فإما أن تمنوا عليهم بعد ذلك بإطلاقكم إياهم من الأسر، وتحرروهم بغير عوض ولا فدية، وإما أن يفادوكم فداء بأن يعطوكم من أنفسهم عوضًا حتى تطلقوهم، وتخلوا لهم السبيل(٢).

قال الإمام البغوي رحمه الله: «واختلف العلماء في حكم هذه الآية، فقال قوم: هي منسوخة بقوله: ﴿ فَإِمَّا نُشْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدٌ بِهِم مَّنْ خَلَفَهُمْ ﴾ [الأنفال:٥٧].

وَبَقُولُه: ﴿ وَالْقَنْلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدَّتُمُوهُمْ ﴾ [التوبة:٥].

وإلى هذا القول ذهب قتادة والضحاك والسدي وابن جريج، وهو قول الأوزاعي وأصحاب الرأي، قالوا: لا يجوز المن على من وقع في الأسر من الكفار ولا الفداء.

وذهب آخرون إلى أن الآية محكمة، والإمام بالخيار في الرجال العاقلين من الكفار إذا وقعوا في الأسر بين أن يقتلهم أو يسترقهم أو يمن عليهم، فيطلقهم بلا عوض أو يفاديهم بالمال، أو بأسارى المسلمين، وإليه ذهب ابن عمر، وبه قال الحسن،

⁽۲) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥٣/٢٢.

⁽١) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ٥٦٤.

وعطاء، وأكثر الصحابة والعلماء، وهو قول الثوري، والشافعي، وأحمد وإسحاق.

قال ابن عباس: لما كثر المسلمون واشتد سلطانهم أنزل الله عز وجل في الأسارى: ﴿ فَإِمَّا مَثَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِنكَآةً ﴾. وهذا هو الأصح والاختيار، لأنه عمل به رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء بعده (١١).

ثم تتوارد الآيات الكريمة في الأمر بقتال الكفار عندما يتولون ويعرضون عن الدين والتزام الأمان والسلم، وعندما ينقضون العهود والمواثيق، فيقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَدُّواْ لَوَ تَكُفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا نَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَا مَحَى يُهَا حِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَإِن نَتَخِذُواْ مِنْهُمْ وَاقْتُ لُوهُمْ حَيْثُ وَجَدَنُمُوهُمْ وَلَا لَكَ الله عَلْمَ وَلَا الله عَلَى اللّهِ فَإِن لَمَا كَفَرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَإِن نَتَخِذُواْ مِنْهُمْ وَلَا تَتَكُونُونَ مَهَا وَلَا الله عَلَى اللّهِ فَإِن نَتَخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِينًا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [النساء: ٩٨].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ الْأَمْهُو ٱلْمُدُمُ مُاقَنْلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدَنُّمُوهُم وَخُذُوهُم وَخُذُوهُم وَأَفْعُدُوا لَهُمْ كُلَ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الْصَلَوْة وَءَاتُوا الرّصَلَوْة وَءَاتُوا الرّصَافِقة وَعَالَمُ اللّه عَفُورٌ رّحِيمٌ ﴾ الرّصَافِة فَوْرُدُ رّحِيمٌ الله التوبة: ٥].

وهذه المعاني نصت عليها الآيات الأخرى، وخصت بالذكر أثمة الكفر وصناديده، وهم القادة في الكفر، من الروساء الطاعنين في دين الرحمن، الناصرين لدين الشيطان، وخصهم بالذكر

لعظم جنايتهم، ولأن غيرهم تبع لهم، وليدل على أن من طعن في الدين وتصدى للرد عليه، فإنه من أئمة الكفر (٢).

فقال تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهَدُّ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَهَدتُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَّارِ ۗ فَمَا اسْتَقَدْمُوا لَكُمْ فَأَسْتَقِيمُوا لَمُمُّ إِنَّ اللَّهَ يُمِتُ ٱلمُتَقِينَ اللهُ كَيْفَ وَإِن يَظْلَهُ وَا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَنسِقُونَ الشَّرُوا بِعَايِنتِ ٱللَّهِ ثَمَنُنَا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ۚ إِنَّهُمْ سَالَهُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۞ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنِ إِلَّا وَلَاذِمَّةٌ وَأُوْلَتِهِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ اللَّهِ عَابُوا وَأَقَامُوا الطَهَاوَةُ وَءَاتُوا ٱلرَّكُوةَ فَإِخْوَالُكُمْ فِي ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْآيِئَتِ لِقَوْمِ يَعْلَمُونَ اللهُ وَإِن لَّكَثُوا أَيْمَنَهُم مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَائِلُواْ أَيِمَةُ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْكُنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ ينتَهُونَ اللهُ أَلَا نُقَائِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَكُمُوا بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بكذ وكم أوَّك مَرَّةً أَتَغَشُونَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ٧ -71].

ثانيًا: أهل الكتاب:

وإذا كان القتال موجهًا في المطلب

⁽١) معالم التنزيل ٧/ ٢٧٨.



⁽۲) انظر تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ۳۳۰.

السابق للكفار بعامة ولأئمتهم وصناديدهم بخاصة، فإن الأمر كذلك توجه للمؤمنين بقتال صنف من الكفار، وهم أهل الكتاب، فإنهم استجمعوا من الصفات ما يسوغ قتالهم إلى أن يسلموا أو يدفعوا الجزية.

فقال الله تعالى: ﴿ فَلَيْلُواْ اللَّهِ لَكَ لَا فَوْمِنُواْ اللَّهِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا يُؤْمِنُونَ مَا حَرَّمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَكُومِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ اللَّهِ مِنَ اللَّهِ مِنَ اللَّهِ مِنَ اللَّهِ مِنْ اللَّهِ مِنْ اللَّهِ مِنْ اللَّهِ مِنْ يَدِ وَهُمّ صَلْعِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩].

وهذه الآية الكريمة نزلت أول الأمر بقتال أهل الكتاب بعدما تمهدت أمور المشركين ودخل الناس في دين الله أفواجًا واستقامت جزيرة العرب، أمر الله ورسوله بقتال أهل الكتابين اليهود والنصاري، وكان ذلك في سنة تسع؛ ولهذا تجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم لقتال الروم ودعا الناس إلى ذلك وأظهره لهم، وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة فندبهم، واجتمع من المقاتلة نحو ثلاثين ألفًا، وتخلف بعض الناس من أهل المدينة ومن حولها من المنافقين وغيرهم؛ وكان ذلك في عام جدب، ووقت قيظ وحرِ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد الشام لقتال الروم فبلغ تبوك فنزل بها وقوله: ﴿حَتَّى يُعَطُّوا ٱلْجِزْيَةَ ﴾ أي: إن لم يسلموا ﴿عَن يَكِ ﴾ أي: عن قهر لهم ﴿ وَهُمَّ صَنْغِرُونَ ﴾ أي: ذليلون حقيرون

مهانون، فلهذا لا يجوز إعزاز أهل الذمة ولا رفعهم على المسلمين، بل هم أذلاء صغرة أشقياء (١).

وقد أخبر الله تعالى عن أهل الكتاب أنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر مع إظهارهم الإيمان بالنشور والبعث. وذلك يحتمل وجوهًا:

أحدها: أن يكون مراده لا يؤمنون باليوم الآخر على الوجه الذي يجري حكم الله فيه من تخليد أهل الكتاب في النار وتخليد المؤمنين في الجنة، فلما كانوا غير مؤمنين بذلك أطلق القول فيهم بأنهم لا يؤمنون باليوم الآخر، ومراده حكم يوم الآخر وقضاؤه فيه، كما تقول: أهل الكتاب غير مؤمنين بالنبي، والمراد بنبوة النبي صلى الله عليه وسلم.

وقيل فيه: إنه أطلق ذلك فيهم على طريق الذم؛ لأنهم بمنزلة من لا يقر به في عظم الجرم، كما أنهم بمنزلة المشركين في عبادة الله تعالى بكفرهم الذي اعتقدوه. وقيل أيضًا: لما كان إقرارهم عن غير معرفة، لم يكن ذلك إيمانًا، وأكثرهم بهذه الصفة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَدِيثُونَ دِينَ الْحَقِ هُو الْإسلام، قال الله الْحَقِ ﴾ فإن دين الحق هو الإسلام، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الدِينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ ﴾ [آل عمران: ١٩].

⁽١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٣٦.

وهو التسليم لأمر الله وما جاءت به رسله والانقياد له والعمل به، والدين يتصرف على وجوه: منها الطاعة، ومنها القهر، ومنها الجزاء. ودين اليهود والنصارى غير دين الحق لأنهم غير منقادين لأمر الله ولا طائعين له، لجحودهم نبوة نبينا صلى الله عليه وسلم.

فإن قيل: فهم يدينون بدين التوراة والإنجيل معترفون به منقادون له؟

فالجواب على ذلك: في التوراة والإنجيل ذكر نبينا، وأمرنا بالإيمان واتباع شرائعه، وهم غير عاملين بذلك بل تاركون له، فهم غير متبعين دين الحق.

وأيضًا: فإن شريعة التوراة والإنجيل قد نسخت، والعمل بها بعد النسخ ضلال، فليس هو إذًا دين الحق.

وأيضًا: فهم قد غيروا المعاني وحرفوها عن مواضعها وأزالوها إلى ما تهواه أنفسهم دون ما أوجبه عليهم كتاب الله تعالى، فهم غير دائنين دين الحق (١).

والذي يتلخص بعد ذلك: أن هذه الآية الكريمة فيها أمرٌ بقتال الكفار من اليهود والنصارى من ﴿ اللَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ مِاللَّهِ وَلَا بِاللَّهِ وَلَا بِاللَّهِ وَلَا بِالْمُورِ اللَّهِ فِي اللَّهِ وَلَا بِاللَّهِ وَلَا بِالْعَالَم وأعمالهم، ولا يحرمون يصدقونه بأفعالهم وأعمالهم، ولا يحرمون

ما حرم الله، فلا يتبعون شرعه في تحريم المحرمات، ﴿وَلا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِ ﴾ أي: لا يدينون بالدين الصحيح، وإن زعموا أنهم على دين، فإنه دين غير الحق، لأنه إما بين دين مبدل، وهو الذي لم يشرعه الله أصلًا، وإما دين منسوخ قد شرعه الله، ثم غيره بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم فيبقى التمسك به بعد النسخ غير جائز.

فأمره بقتال هؤلاء وحث على ذلك، لأنهم يدعون إلى ما هم عليه، ويحصل الضرر الكثير منهم للناس بسبب أنهم أهل كتاب. وغاية ذلك القتال ﴿حَقَّ يُعَطُّوا الْجِزْيَة ﴾ أي: المال الذي يكون جزاء لترك المسلمين قتالهم، وإقامتهم آمنين على أنفسهم وأموالهم بين أظهر المسلمين، يؤخذ منهم كل عام، كل على حسب حاله، من غني وفقير ومتوسط، كما فعل ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وغيره من أمراء المؤمنين.

وقوله: ﴿عَن يَدِ ﴾ أي: حتى يبذلوها في حال ذلهم وعدم اقتدارهم ويعطونها بأيديهم، فلا يرسلون بها خادما ولا غيره، بل لا تقبل إلا من أيديهم ﴿وَهُمُ مَنْغُرُونَ ﴾ فإذا كانوا بهذه الحال، وسألوا المسلمين أن يقروهم بالجزية، وهم تحت أحكام المسلمين وقهرهم، وحال الأمن من شرهم وفتنتهم، واستسلموا للشروط التي أجراها

⁽۱) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ٤/ ٢٨٢. وانظر: في ظلال القرآن ٣/ ١٦٢١.

عليهم المسلمون مما ينفي عزهم وتكبرهم ويوجب ذلهم وصغارهم (۱)؛ وجب على الإمام أو نائبه أن يعقدها لهم. وإلا بأن لم يفوا ولم يعطوا الجزية عن يدوهم صاغرون لم يجز إقرارهم بالجزية، بل يقاتلون حتى يسلموا(۲).

ثالثًا: المرتدون.

وهذا صنف ثالث من أصناف الذين يقاتلهم المسلمون، ويكون قتالهم جهادًا في سبيل الله؛ لأنه قتال لإعلاء كلمة الله تعالى، بل قد يكون قتالهم أولى من قتال الكفار الأصليين. وفي بيان حال المرتدين يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدُ مِن مَنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتُ وَهُو كَافَرُ فَأُولَتِهِكَ مِن مَن الله سُبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدُ مَن مَن لِمَنْ مَن يُرْتَدِدُ أَلُولُمُ عَن دِينِهِ فَيَمُتُ وَهُو كَافَرُ فَأُولَتِهِكَ مَن الله سُبحانه في الدُّنيا وَالْآخِرَةُ وَأُولَتِهِكَ مَن لِينَارِ هُمْ فِيهَا خَلادُونَ ﴾ [البقرة: أَصَحَابُ النَّارِ هُمْ فِيها خَلادُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٧].

قال الإمام عبد الحق ابن عطية رحمه الله

(۱) قال الماوردي في تفسيره النكت والعيون ٢٥٢/٢ في معنى الصَغَار: فيه خمسة أقاويل: أحدها: أن يكونوا قيامًا والآخذ لها جالسًا، قاله عكرمة. والثاني: أن يمشوا بها وهم كارهون، قاله ابن عباس. والثالث: أن يكونوا أذلاء مقهورين، قاله الطبري. والرابع: أن دفعها هو الصغار بعينه. والخامس: أن الصغار أن تجري عليهم أحكام الإسلام، قاله الشافعي.

وانظر: معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٣٤، زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٢٥٠.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٣٣٤.

في بيان الردة وما يترتب عليها، في تفسيره لهذه الآية الكريمة:

«أي: من يرجع عن الإسلام إلى الكفر. قالت طائفة من العلماء: يستتاب المرتد فإن تاب وإلا قتل.

وقال عبيد بن عمير وطاووس والحسن -على خلاف عنه- والشافعي في أحد قوليه: يقتل دون أن يستتاب. وروي نحو هذا عن أبى موسى الأشعري ومعاذ بن جبل.

ومقتضى قولهما أنه يقال له للحين: راجع. فإن أبى ذلك قتل، وقال عطاء بن أبي رباح: إن كان المرتد ابن مسلمين قتل دون استتابة، وإن كان أسلم ثم ارتد استيب، وذلك لأنه يجهل من فضل الإسلام ما لا يجهل ابن المسلمين.

واختلف القائلون بالاستتابة: فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يستتاب ثلاثة أيام. وبه قال مالك وأحمد وإسحاق وأصحاب الرأي والشافعي في أحد قوليه.

وقال الزهري: يدعا إلى الإسلام، فإن تاب وإلا قتل.

وروي عن علي أبي طالب رضي الله عنه أنه استتاب مرتدًا شهرًا فأبى فقتله، وقال النخعي والثوري: يستتاب محبوسًا أبدًا. قال ابن المنذر: واختلفت الآثار عن عمر في هذا اللاب.

قال القاضي أبو محمد: كان رضى الله

عنه ينفذ بحسب جرم ذلك المرتد أو قلة جرمه المقترن بالردة»(١).

رابعًا: الطائفة الممتنعة عن أداء أحد أركان الإسلام.

إن تتبع الأحكام الشرعية في قتال فتات وطوائف تتصف بصفة معينة أو تمتنع عن الالتزام بحكم من الأحكام الظاهرة أو تترك شعيرة من شعائره يجعلنا نخرج بحكم كلي أو قاعدة عامة في قتال الطائفة الممتنعة عن أداء أحد أركان الإسلام، وهو وجوب قتالها حتى تعود إلى الإقرار والطاعة والالتزام، فتتمتع عندئذ بالعصمة، أو تعود إليها العصمة التي سقطت عنها بامتناعها عن أداء الركن.

وقد أبان عن ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله خير بيان وأوضحه، واستدل له بالآيات الكريمة الواضحة الدلالة فقال:

«أجمع علماء المسلمين على أن كل طائفة ممتنعة عن شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة فإنه يجب قتالها حتى يكون الدين كله لله، فلو قالوا: نصلي ولا نزكي، أو نصلي الخمس ولا نصلي الجمعة ولا الجماعة، أو نقوم بمباني الإسلام الخمس ولا نحرم دماء المسلمين

وأموالهم، أو لا نترك الربا ولا الخمر ولا الميسر، أو نتبع القرآن ولا نتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا نعمل بالأحاديث الثابتة عنه، أو نعتقد أن اليهود والنصاري خير من جمهور المسلمين وأن أهل القبلة قد كفروا بالله ورسوله ولم يبق منهم مؤمن إلا طائفة قليلة، أو قالوا: إنا لا نجاهد الكفار مع المسلمين، أو غير ذلك من الأمور المخالفة لشريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنته وما عليه جماعة المسلمين؟ فإنه يجب جهاد هذه الطوائف جميعها كما جاهد المسلمون مانعي الزكاة، وجاهدوا الخوارج وأصنافهم، وجاهدوا الخرمية والقرامطة والباطنية وغيرهم من أصناف أهل الأهواء والبدع الخارجين عن شريعة الإسلام.

وذلك لأن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿ وَقَائِلُوهُمْ حَتَىٰ لَا تَكُونَ فِنْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ

اَنهَوْ فَلَاعُدُونَ إِلَا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٣].

فإذا كان بعض الدين لله وبعضه لغير الله وجب قتالهم حتى يكون الدين كله لله.

وقال تعالى: ﴿ وَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوَةُ وَالتَّوا الصَّلَوَةُ وَالتَّوا الرَّبِيدَ اللَّهِ اللَّهُ اللَّالْمُ اللَّهُ اللَّهُ اللل

فلم يأمر بتخلية سبيلهم إلا بعد التوبة من جميع أنواع الكفر وبعد إقام الصلاة وإيتاء الزكاة.

وقال تعالى: ﴿ يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّـَقُوا

⁽۱) المحرر الوجيز ۱/ ۲٤۱. وانظر: جامع البيان، الطبري ۲/ ۳۱۲–۳۱۷، معالم التنزيل، البغوي ۱/ ۲٤۲.



الله وَذَرُوا مَا بَقِى مِنَ الرِّيَوَا إِن كُنتُ مُ مُُوْمِنِينَ ﴿ اللهِ وَدَسُولِهِ مَا الرِّيوَا إِن كُنتُ م فَإِن لَمْ تَفْعَلُوا فَأَذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ مَ وَإِن تُبْتُدُ مَ فَلَكُمُ رُدُوسُ أَمَولِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ لَا تَظْلِمُونَ اللهِ إِللهِ قَالِمَ ٢٧٨ - ٢٧٩].

فقد أخبر تعالى أن الطائفة الممتنعة إذا لم تنته عن الربا فقد حاربت الله ورسوله، والربا آخر ما حرم الله في القرآن فما حرمه قبله أوكد.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَّاؤُا الَّذِينَ عُمَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولُهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَيَسَادًا أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَكَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَسَادًا أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَكَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَنَّ يُنفَوْأُ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْأُ مِن أَلْأَرْضِ ﴾ [المائدة: ٣٣].

فكل من امتنع من أهل الشوكة عن الدخول في طاعة الله ورسوله فقد حارب الله ورسوله، ومن عمل في الأرض بغير كتاب الله وسنة رسوله فقد سعى في الأرض فسادًا؛ ولهذا تأول السلف هذه الآية على الكفار وعلى أهل القبلة؛ حتى أدخل عامة الأئمة فيها قطاع الطريق الذين يشهرون السلاح لمجرد أخذ الأموال، وجعلوهم بأخذ أموال الناس بالقتال محاربين لله ورسوله ساعين في الأرض فسادًا، وإن كانوا يعتقدون تحريم ما فعلوه ويقرون بالإيمان بالله ورسوله. فالذي يعتقد حل دماء المسلمين وأموالهم ويستحل قتالهم، أولى بأن يكون محاربًا لله ورسوله، ساعيًا

في الأرض فسادًا من هؤلاء. كما أن الكافر الحربي الذي يستحل دماء المسلمين وأموالهم ويرى جواز قتالهم، أولى بالمحاربة من الفاسق الذي يعتقد تحريم ذلك

وقد قال تعالى في كتابه: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُومِنُونَ حَقَى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَكَرَ بَيْنَهُمْ فَكُمُ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا أَسَلِيمًا ﴾ [النساء: ٢٥].

فكل من خرج عن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وشريعته فقد أقسم الله بنفسه المقدسة أنه لا يؤمن حتى يرضى بحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم في جميع ما يشجر بينهم من أمور الدين والدنيا وحتى لا يبقى في قلوبهم حرج من حكمه. ودلائل القرآن على هذا الأصل كثيرة.

وبذلك جاءت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنة خلفائه الراشدين؛ ففي «الصحيحين» (۱): عن أبي هريرة قال: (لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وارتد من العرب قال عمر بن الخطاب لأبى بكر: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول

⁽۱) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتصام، باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ١٥٠/١٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله..رقم ٢٠،

الله صلى الله عليه وسلم: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم أموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله)؟ فقال أبو بكر: ألم يقل إلا بحقها؟ فإن الزكاة من حقها، والله لو منعوني عناقا كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله فيه وسلم لقاتلتهم على منعها. فقال عمر: فو الله ما هو إلا أن رأيت أن الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعلمت أنه الحق). فاتفق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على قتال أقوام يصلون ويصومون وسلم على قتال أقوام يصلون ويصومون إذا امتنعوا عن بعض ما أوجبه الله عليهم من زكاة أموالهم.

وهذا الاستنباط من صديق الأمة قد جاء مصرحًا به. ففي «الصحيحين»(۱): عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها).

فأخبر صلى الله عليه وسلم أنه أمر بقتالهم حتى يؤدوا هذه الواجبات. وهذا

مطابق لكتاب الله. وقد تواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجوه كثيرة، وأخرج منها أصحاب الصحيح عشرة أوجه ذكرها مسلم في "صحيحه" وأخرج منها البخاري غير وجه، وقال الإمام أحمد رحمه الله صح الحديث في الخوارج من عشرة أوجه" (٢).

خامسًا: الطائفة المعتدية على الأخرى من المؤمنين:

أقام الإسلام العلاقة بين المؤمنين على أساس العقيدة والإيمان والأخوة الإسلامية التي ينتفي معها القتال بين المؤمنين، لأن العصمة وحرمة الدم والمال والعرض ثابتة لكل منهم بإيمانه وإسلامه، فلا يجوز أن يكون القتال بين فتتين مسلمتين، أو بين دولتين مسلمتين –عندما توزعت الأمة الواحدة إلى دول – إلا أن الإسلام يعالج كل الاحتمالات والوقائع التي قد تطرأ فتحمل بعض الناس من المؤمنين على بغي أو عدوان على آخرين منهم، وهنا يجب المبادرة إلى الإصلاح ورفع العدوان والبغي الواقع من إحدى الطائفتين على الأخرى (٣).



⁽۱) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب فإن تابوا وأقاموا الصلاة، ١/ ٧٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، ١/ ٥٣.

⁽۲) انظر: مجموع فتاوی ابن تیمیة ۲۸/ ۶۲۹-۷/۷۰

⁽٣) انظر: المشروعية في النظام الإسلامي د.مصطفى كمال وصفي، ص٥٥، منهج الإسلام في الحرب والسلام عثمان ضميرية، ص٥٤، الجهاد في سبيل الله عزة دروزة،

قال الله تعالى: ﴿ وَإِن طَابَهُنَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اَقْنَتُلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمّا فَإِنْ بَغَتَ إِلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ اَقْنَتْلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمّا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا أَلَى تَبْغِي حَتَّى تَفِي عَلِيَ الْمُولِينَ اللّهَ اللّهَ يُعِبُ الْمُقْسِطِينَ اللّهَ إِنّهَ اللّهَ لَعَلَكُونَ إِخُوةً لَا اللّهَ لَعَلَكُونُ فَرْحَمُونَ إِخُوةً فَأَصْلِحُوا بَيْنَ الْمُؤْمِنُونَ إِخُوةً فَأَصْلِحُوا بَيْنَ الْمُؤْمِنُونَ إِخُوةً فَأَصْلِحُوا بَيْنَ الْمُؤْمِنُونَ إِخُوةً فَأَصْلِحُوا بَيْنَ الْمُؤْمِنُونَ إِخُوةً وَاللّهَ لَعَلَكُونُ فَرْحَمُونَ ﴾ فأصلِحُوا بَيْنَ الْخُويَكُونُ وَاتّقُوا اللّهَ لَعَلَكُونُ فَرْحَمُونَ ﴾ والدحجرات: ٩-١٠].

وقد تضمنت الآيات تعليمًا رائع المدى أو حكومات بشأن ما قد يقوم من قتال بين فريقين من النزاع والقتا المؤمنين. والتعليم هنا موجه إلى فريق ثالث الآيات هو وليس طرفًا في القتال، يجب عليه ألا يقف الحكومات موقف المتفرج، بل عليه أن يسارع إلى فض وحل النزاع القتال والإصلاح بين المتقاتلين المسلمين والعدل، ووالذين هم إخوة لا يجوز أن يقع بينهم قتال اإذا أبى الباء ولا نزال ولا بغي على أحد، ويعمل على يذعن له (۱۲) إحقاق الحق لأهله بدون محاباة، ونصرة والمعنى المظلوم ولو بالسلاح، إذا لم يرتدع الظالم الكريمة: وإن ويقف عند الحق والعدل وحدود الله.

وقد روى المفسرون أن الآيتين نزلتا في مناسبة نزاع بين أسرتين أو عشيرتين أدى إلى قتال بينهما^(۱)، ولكن الحكم يبقى أوسع مدى من الواقعة التي نزلت الآيات بسببها؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص

السبب، كما يقول علماؤنا رحمهم الله تعالى.

وهذا يسوغ القول بأن الآيات الكريمة استهدفت تقريرا قاعدة عامة أوسع شمولًا، وينطوى في حكمها أن يكون القتال بين حكومتين إسلاميتين، أو فتنة قتالية بين حكومة إسلامية ورعيتها مع وجود حكومة أو حكومات إسلامية أخرى ليست طرفًا في النزاع والقتال، وأن التوجيه الذي احتوته الآيات هو وجوب تدخل هذه الحكومة أو الحكومات بين المتقاتلين لإصلاح الأمر وحل النزاع ووقف القتال على أساس الحق والعدل، ووجوب نصر من وقع عليه البغي والعدل، ووجوب نصر من وقع عليه البغي يذعن له ألى أن

والمعنى الإجمالي العام للآيات الكريمة: وإن طائفتان من أهل الإيمان اقتتلوا فأصلحوا - أيها المؤمنون - بينهما بدعوتهما إلى الاحتكام إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، والرضا بحكمهما، فإن اعتدت إحدى الطائفتين وأبت الإجابة إلى ذلك، فقاتلوها حتى ترجع إلى حكم الله ورسوله، فإن رجعت فأصلحوا بينهما بالإنصاف، واعدلوا في حكمكم بأن لا تتجاوزوا في أحكامكم حكم الله وحكم

⁽٢) انظر: الجهاد في سبيل الله، محمد عزة دروزة، ص١٧٤-١٧٥.

⁽۱) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٦/ ١٢٩، معالم التنزيل، البغوي ٧/ ٣٤٠، المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ١٤٨، الدر المنثور، السيوطي ٧/ ٥٦٠-٥٦١، الهداية إلى بلوغ النهاية، مكى بن أبي طالب ٢٩٩٩/١١.

رسوله، إن الله يحب العادلين في أحكامهم القاضين بين خلقه بالقسط، فإنما المؤمنون إخوة في الدين، فأصلحوا بين أخويكم إذا اقتتلا وخافوا الله في جميع أموركم؛ رجاء أن ترحموا(١٠).

قال الإمام أبو جعفر الطبري رحمه الله: يقول تعالى ذكره: وإن طائفتان من أهل الإيمان اقتتلوا، فأصلحوا أيها المؤمنون بينهما بالدعاء إلى حكم كتاب الله، والرضا بما فيه لهما وعليهما، وذلك هو الإصلاح بينهما بالعدل، فإن أبت إحدى هاتين الطائفتين الإجابة إلى حكم كتاب الله له، وعليه وتعدت ما جعل الله عدلًا بين خلقه، وأجابت الأخرى منهما، فقاتلوا التي تعتدى، وتأبى الإجابة إلى حكم الله حتى ترجع إلى حكم الله الذي حكم في كتابه بين خلقه؛ فإن رجعت الباغية بعد قتالكم إياهم إلى الرضا بحكم الله في كتابه، فأصلحوا بينها وبين الطائفة الأخرى التي قاتلتها بالعدل يعنى: بالإنصاف بينهما، وذلك حكم الله في كتابه الذي جعله عدلًا بين خلقه (٢).

سادسًا: البغاة:

قد ترى جماعة من المسلمين في المجتمع المسلم رأيًا فتتمسك به وتدافع عنه، أو تتأول حكمًا تنفرد به وتتعصب له،

وتدافع عنه بعنف حتى تبغي على غيرها، ويترابط أفرادها بعضهم مع بعض حتى يخشى بأسهم، أو يصبحوا على حالة تؤدي إلى تفرق الكلمة، وتجزئة الصف، بل ربما تطمع تلك الحالة العدو بالمسلمين بعد إظهار خلع طاعة الإمام الحاكم، وهؤلاء هم البغاة الذين بغوا على أهل العدل، فسوغ ذلك قتالهم، فيما أسماه علماؤنا بـ «حروب المصالح» (٣).

قال الله تعالى: ﴿ وَإِن طَآبِهُنَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اَقْنَتْلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَّا فَإِنْ بَعَتَ إِلَى إِحْدَنَهُمَا عَلَى ٱلْأَخْرَىٰ فَقَائِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَقَّى تَغِيءَ إِلَى الْمُرِاللَّهُ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُواً إِنْ اللَّهُ يُمِثُ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات: ٩].

البغي في اللغة العربية: هو طلب الشيء، يقال: بغيت كذا إذا طلبته. ومن ذلك قوله تعالى حكاية عن موسى: ﴿ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا لَهُ اللَّهِ مَا كُنَّا لَهُ اللَّهِ مَا كُنَّا لَهُ اللَّهُ مَا كُنَّا لَهُ اللَّهُ مَا كُنّا لَهُ اللَّهُ مَا كُنّا لَهُ اللَّهُ اللَّالَةُ اللَّهُ اللَّا اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللّ

ثم اشتهر البغي عرفًا في التعدي وطلب ما لا يحل من الجور والظلم، وإن كانت اللغة لا تمنع أن يكون البغي بحق، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي ٱلْفَوَحِشَ

⁽١) التفسير الميسر ص١٦٥.

⁽٢) جامع البيان، الطبري ٢٩/ ٢٩٢.

⁽٣) عقد الماوردي الباب الثالث من الأحكام السلطانية للولاية على حروب المصالح، وهي الردة والبغي والحرابة.

وانظر: الجهاد في سبيل الله، محمود شاكر، ص٢٣١-٢٣٣، الجهاد في سبيل الله، محمد عزة دروزة، ص١٧٤.

مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغَى بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف:٣٣](١).

ويختلف الفقهاء في تعريف البغي اصطلاحًا لاختلافهم في الشروط التي يجب توافرها في البغاة، ولمحاولة الفقهاء في أكثر من مذهب أن يجمعوا في التعريف بين أركان البغي وشروطه ورغبتهم أن يكون التعريف جامعًا مانعًا، ونستطيع أن نعرف البغي تعريفًا مشتركًا فيه كل المذاهب إذا اكتفينا بإبراز الأركان الأساسية في التعريف فقول: إن البغي هو الخروج على الإمام مغالبةً (٢).

ومن تعريف البغي يؤخذ تعريف البغاة، وهي جمع لكلمة الباغي، وهو في الشرع: الخارج على الإمام العدل. فالبغاة هم طائفة من الناس جمعت بين ثلاثة أمور:

- الخروج على الإمام العدل. والمقصود هو مخالفة الإمام والعمل لخلعة، أو الامتناع عما وجب على الخارجين من حقوق، وأن يكون الخروج مغالبة.
- الخروج على الإمام مغالبة. أي أن يكون الخروج مصحوبًا باستعمال القوة، فإذا كان الخروج غير مصحوب

باستعمال القوة فلا يعتبر بغيًا، كرفض مبايعة الإمام بعد أن بايعت له الأغلبية، ولو نادى الخارجون بعزل الإمام أو بعصيانه وعدم طاعته أو بالامتناع عن أداء ما عليهم من واجبات تقوم الدولة على استيفائها.

القصد الجنائي في الخروج (قصد البغي)، فيشترط لوجود البغي أن يتوفر لدى الخارج القصد الجنائي العام؛ أي قصد الخروج على الإمام مغالبة، فإذا كان الخارج لم يقصد من فعله الخروج على الإمام أو لم يقصد المغالبة فهو ليس باغيًا (٣).

فإذا اجتمعت طائفة لهم قوة ومنعة فامتنعوا عن طاعة الإمام العدل بتأويل محتمل، ونصبوا إمامًا: فالحكم فيهم أن يبعث الإمام إليهم ويدعوهم إلى طاعته، فإن أظهروا مظلمة أزالها عنهم، وإن لم يذكروا مظلمة، وأصروا على بغيهم، قاتلهم الإمام حتى يفيئوا إلى طاعته.

ثم الحكم في قتالهم: أن لا يتبع مدبرهم ولا يقتل أسيرهم، ولا يجهز على جريحهم، فقد نادى منادي علي رضي الله عنه يوم الجمل: ألا لا يتبع مدبر ولا يذفف على

⁽۱) انظر: الصحاح، الجوهري ٦ / ٢٢٨١، لسان العرب، ابن منظور ١٥/١٤ ، المصباح المنير، الفيومي ص٥ ٥-٥٧.

⁽٢) انظر: التشريع الجنائي الإسلامي ٢/ ١٧١-١٧٢.

⁽٣) انظر: التشريع الجنائي الإسلامي ٢/ ٢٧١.

⁽٤) أخرجه البيهقي موقوفًا ٨/١٨١، وصححه الحاكم في المستدرك: ٢/ ١٥٥ ولم يتعقبه

وما أتلفت إحدى الطائفتين على الأخرى في حال القتال من نفس أو مال فلا ضمان عليه. قال ابن شهاب الزهري: كانت في تلك الفتنة دماء يعرف في بعضها القاتل والمقتول، وأتلف فيها أموال كثيرة، ثم صار الناس إلى أن سكنت الحرب بينهم، وجرى الحكم عليهم، فما علمته اقتص من أحد ولا أغرم مالاً أتلفه.

أما من لم يجتمع فيهم هذه الشرائط الثلاث بأن كانوا جماعة قليلين لا منعة لهم، أو لم يكن لهم تأويل، أو لم ينصبوا إمامًا فلا يتعرض لهم إن لم ينصبوا قتالًا ولم يتعرضوا للمسلمين، فإن فعلوا فهم كقطاع الطريق(١).

روي أن عليًا رضي الله عنه سمع رجلًا يقول في ناحية المسجد: «لا حكم إلا لله تعالى»، فقال عليّ: كلمة حق أريد بها باطل، لكم علينا ثلاث: لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسم الله، ولا نمنعكم الفيء ما دامت أيديكم مع أيدينا، ولا نبدؤكم بقتال(٢).

قال العلامة أبو بكر الجصاص رحمه الله: «قد اقتضى ظاهر الآية الأمر بقتال الفتة

الباغية حتى ترجع إلى أمر الله، وهو عموم في سائر ضروب القتال، فإن فاءت إلى الحق بالقتال بالعصي والنعال لم يتجاوز به إلى غيره، وإن لم تفئ بذلك قوتلت بالسيف على ما تضمنه ظاهر الآية. وغير جائزٍ لأحد الاقتصار على القتال بالعصي دون السلاح مع الإقامة على البغي وترك الرجوع إلى الحق، وذلك أحد ضروب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه أن الله المقله وذاك أضعف الإيمان) (٣).

فأمر بإزالة المنكر باليد، ولم يفرق بين السلاح وما دونه، فظاهره يقتضي وجوب إزالته بأي شيء أمكن.

وذهب قوم إلى أن قتال أهل البغي إنما يكون بالعصي والنعال وما دون السلاح وأنهم لا يقاتلون بالسيف، واحتجوا بما روينا من سبب نزول الآية وقتال القوم الذين تقاتلوا بالعصي والنعال. وهذا لا دلالة فيه على ما ذكروا؛ لأن القوم تقاتلوا بما دون السلاح، فأمر الله تعالى بقتال الباغي منهما ولم يخصص قتالنا إياه بما دون السلاح ولم نقول متى ظهر لنا قتال من فئة على وجه البغي قابلناه بالسلاح وبما دونه حتى

 ⁽٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان،
 باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان،
 رقم ٧٨، ١/ ٦٩.

الذهبي.

انظر: نصب الراية، الزيلعي ٣/٤٦٣، التلخيص الحبير، ابن حجر ٤/ ٤٣، إرواء الغليل، الألباني ١١٣/٨.

⁽١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٧/ ٣٤٢.

⁽٢) انظر: المصدر السابق.

ترجع إلى الحق، وليس في نزول الآية على حال قتال الباغي لنا بغير سلاح ما يوجب أن يكون الأمر بقتالنا إياهم مقصورًا على ما دون السلاح مع اقتضاء عموم اللفظ للقتال بسلاح وغيره. ألا ترى أنه لو قال: «من قاتلكم بالعصي فقاتلوه بالسلاح» لم يتناقض القول به؟ فكذلك أمره إيانا بقتالهم؛ إذ كان عمومه يقتضي القتال بسلاح وغيره، وجب أن يجرى على عمومه وأيضا قاتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه الفئة الباغية بالسيف»(۱).

ثم أبان عن واجب الإمام في التعامل مع أهل البغي وما يبدؤهم به فقال (٣): هأمر الله عند ظهور القتال منهم بالإصلاح بينهما، وهو أن يدعوا إلى الصلاح والحق وما يوجبه الكتاب والسنة والرجوع عن البغي، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ بَعَتْ إِحَدَنَهُمَا عَلَى البغي، وقوله تعالى الحق وأرادت الصلاح وأقامت الأخرى على بغيها وامتنعت من الرجوع فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله. فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله. فأمر تعالى بالدعاء إلى الحق قبل القتال، ثم فأمر تعالى بالدعاء إلى الحق واحتج عليهم، فلما أبوا أبي طالب -كرم الله وجهه - بدأ بدعاء الفئة الباغية إلى الحق واحتج عليهم، فلما أبوا

القبول قاتلهم.

وفي هذه الآية دلالة على أن اعتقاد مذاهب أهل البغي لا يوجب قتالهم ما لم يقاتلوا؛ لأنه قال: ﴿ فَإِنْ بَغَتَ إِخَدَنَّهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَائِلُوا ٱلَّتِي تَبْغِي حَقَّىٰ تَغِيَّ إِلَىٰ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾، فإنما أمر بقتالهم إذا بغوا على غيرهم بالقتال، وكذلك فعل على بن أبي طالب مع الخوارج؛ وذلك لأنهم حين اعتزلوا عسكره بعث إليهم عبد الله بن عباس -رضى الله عنهما- فدعاهم، فلما أبوا الرجوع ذهب إليهم فحاجهم فرجعت منهم طائفة وأقامت طائفة على أمرها، فلما دخلوا الكوفة خطب فحكمت الخوارج من نواحى المسجد وقالت: «لا حكم إلا لله» فقال على رضى الله عنه: «كلمة حق يراد بها باطل، أما إن لهم ثلاثًا: أن لا نمنعهم مساجد الله أن يذكروا فيها اسمه، وأن لا نمنعهم حقهم من الفيء ما دامت أيديهم مع أيدينا، وأن لا نقاتلهم حتى يقاتلونا»(۳).

⁽١) أحكام القرآن ٣/ ٥٣٢ -٥٣٣.

⁽٢) المصدر السابق.

⁽٣) تقدم تخريجه قريبًا.

أحكام القتال

تنزلت الآيات الكريمة، وتواردت الأحاديث النبوية الشريفة وتواترت الوقائع العملية في السيرة النبوية في بيان أحكام القتال، والشروط الواجب توفرها فيمن يجب عليه القتال و الجهاد.

ثم رسمت الآيات الكريمة والأحاديث النبوية صورة مزرية للمتقاعسين والمتخلفين عن القتال بدون عذر، أو المتلمسين للأعذار الكاذبة. واستتبع ذلك بيان الآثار المترتبة على القتال في الأنفس والأموال، فقد أبانت الآيات عن حكم الفيء والغنائم والجزية التي تؤخذ من الكفار، وحكم الأسرى الذين يقعون في أيدي المقاتلين المسلمين.

وسيتم الحديث عنها في النقاط الآتية:

أولًا: حكم القتال وشروطه:

١. حكم القتال.

الأصل العام والقاعدة المقررة أن قتال الكفار -أو الجهاد بمعناه الخاص- واجب على المسلمين إلا أنهم في سعة من ذلك حتى يحتاج إليهم. ويدل على أصل الوجوب أو الفرضية آيات قرآنية كريمة وأحاديث نبوية كثيرة.

فمن الآيات الكريمة؛ قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱلْسَلَخَ ٱلْأَشْهِرُكِينَ ﴾

حَيْثُ وَجَدَنَّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ حَثُلَّ مَرْصَدِ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَاتَوُا الزَّكَوْةَ فَخَلُوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورُ رَعِيدُ ﴾ [التوبة: ٥].

وقوله تعالى: ﴿فَقَائِلُوٓا أَمِمَّةَ الْكُفِّرِ الْكَفْرِ الْكَفْرِ الْكَفْرِ الْكَفْرَ الْمُمَّمَ لَا الْمُعْرَ لَعَلَمُهُمْ يَنتَهُونَ ﴾ [التوبة: ١٢].

وقوله تعالى: ﴿ وَقَائِلُوهُمْ حَتَىٰ لَا تَكُونَ فِتَالَهُ مُ حَتَىٰ لَا تَكُونَ فِتَانَةٌ وَيَكُونَ اللَّذِينُ كُلُّهُ اللَّهِ فَإِنِ النَّهُوا فَإِنَ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ لَقَهُ بِمَا يَعْمَلُونَ لَقَهُ بِمَا يَعْمَلُونَ لَعَمِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٣٩].

وقوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ خَيْرٌ الْقِتَالُ وَهُوَ خَيْرٌ اللهِ وَهُوَ خَيْرٌ اللهُ وَهُوَ خَيْرٌ اللهُ وَعُمَوَ أَلَنَهُ وَعُمَوَ أَلَنَهُ وَعُمَوَ أَلَنَهُ وَاللهُ وَعُمَوَ أَلَنَهُ وَاللهُ وَعُمَوَ شَرٌ لَكُمُ أَوَاللهُ يَعْلَمُ وَأَللهُ وَاللهُ وَاللّهُ وَاللّه

وُقوله تعالى: ﴿ وَقَائِلُوا الْمُشْرِكِينَ كُافَةً كُمَا يُقَائِلُونَكُمُ الْمُشْرِكِينَ كُلُونَكُمُ كَا يُقَائِلُونَكُمُ كَافَةً ﴾ [التوبة: ٣٦].

وقوله تعالى: ﴿آنفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَنِهِدُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَنِهِدُوا بِأَمْوَلِكُمْ وَأَنفُوكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ اللَّهِ اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: ٤١].

وقال عليه الصلاة والسلام: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة. فإذا فعلوا ذلك فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام

وحسابهم على الله)(١).

والأمر المطلق في هذه الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة يقتضي اللزوم. فاقتضى هذا أن القتال والجهاد فريضة محكمة يكفر جاحدها، وقد ثبتت فرضيتها بالكتاب والسنة والإجماع (٢).

وقد أجمع علماء المسلمين وفقهاء الأمة الإسلامية -منذ العصور الأولى: على هذه الفرضية. ولكن وقع الخلاف بينهم -بعد ذلك- في نوع هذا الفرض وكيفيته، هل هو فرض عين أو فرض كفاية؟

والأمر فيه لا يخلو من أحد وجهين: إما أن يكون النفير عامًا (٣)، وإما أن لا يكون، لأن الكفار مستقرون ببلادهم لم يبدؤونا بالقتال، ولذلك نبحث حكم القتال في هاتين الحالتين:

١. إذا لم يكن النفير عامًا.

(۱) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب (فإن تابوا وأقاموا الصلاة)، ١/ ٧٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، ١/ ٥٣/٠.

(۲) انظر: شرح السير الكبير، الشيباني ١٨٨/، المبسوط، السرخسي ١١/٣، أحكام القرآن الجصاص ٣/ ١١٤ - ١١٥.

(٣) معنى النفير أن يخبر أهل مدينة أن العدو قد جاء يريد أنفسكم أو ذراريكم أو أموالكم. فهو التحريض على الجهاد.والنفير العام: أن يحتاج إلى جميع المسلمين، فلا يحصل المقصود - وهو إعزاز الدين - إلا بالجميع. انظر: شرح السير الكبير ١١٢/١.

ذهب جمهور الفقهاء إلى أن الجهاد فرض كفاية إن لم يكن النفير عامًا، إذا قام به بعض المكلفين ممن يتأدى بهم الفرض، وتحصل بهم الكفاية، سقط الوجوب عن الباقين وكانوا في سعة من تركه، لأن المطلوب حصوله في نفسه من مجموع المكلفين. وإن لم يقم به أحد من المكلفين بقي الخطاب موجهًا إلى الجميع للقيام به، وعندئذ يأثم كل قادر إن لم يجاهد. فالخطاب بالفرضية في ابتدائه موجه إلى الجميع من القادرين على القيام به كفرض العين، أو إلى مجموعهم ثم يختلفان في أن فرض الكفاية يسقط بفعل بعض الناس له، وفرض العين لا يسقط عن أحد بفعل غيره. والدليل على أنه فرض كفاية: من القرآن الكريم ومن السنة النبوية ومن المعقول

فمن القرآن الكريم: قوله تعالى: ﴿لا يَسْتَوِى الْقَعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ عَيْرُ أُولِي الضَّرَدِ وَالْمُجَعِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْرِلِهِمْ وَأَنفُسِمٍمْ فَضَّلَ اللهُ اللهُ اللهُ عَلَى الْقَعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاً وَعَدَ اللهُ الْمُحَعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاً وَعَدَ اللهُ الْمُحَعِدِينَ عَلَى الْقَعِدِينَ عَلَى الْقَعِدِينَ وَعَدَ اللهُ المُحْتَعِدِينَ عَلَى الْقَعِدِينَ عَلَى الْقَعِدِينَ اللهُ ا

فلو كان الجهاد فرضًا على كل أحد في نفسه لما كان القاعدون موعودين بالحسنى، بل كانوا يكونون مذمومين مستحقين للعقاب بتركه، لأن القعود عن القيام بالفرض يكون

حرامًا(١).

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَسْفِرُوا صَافَةُ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةِ مِنْهُمُ لِيَسْفِرُوا كَافَةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةِ مِنْهُمُ طَابَهَةً لِيسَنَفَقَهُوا فِي الدِينِ وَلِيسْنِدُرُوا فَوْمَهُمُ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمُ لَعَلَّهُمْ يَعَذَرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٢].

فالآية تدل على أن الجهاد ليس على الأعيان وأنه فرض كفاية، إذ لو نفر الكل لضاع من وراءهم من العيال، فليخرج فريق منهم للجهاد، وليقم فريق يتفقهون في الدين ويحفظون الحريم، حتى إذا عاد النافرون أعلمهم المقيمون ما تعلموه من أحكام الشرع وما تجدد نزوله على النبي صلى الله عليه وسلم (٢).

ومن السنة النبوية: عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث بعثًا إلى بني لحيان من هذيل، فقال: (لينبعث من كل رجلين أحدهما، والأجر بينهما) (٣). ولو كان الجهاد فرض عين في هذه الحال لكان لا يتوهم منه صلى الله عليه وسلم القعود عنه بحال، ولا أذن

- (۱) أحكام القرآن، الجصاص ۱۱۲/۳. وانظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ۱/۳۲۰– ۳٤۵، زاد المسير، ابن الجوزي ۱/۳۷۲– ۱۷۰، روح المعاني، الألوسي ۱/۱۲۱–۱۲۳.
- (۲) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٢٣٩.
 وانظر: معالم التنزيل، البغوي ١١١/٤،
 أسباب النزول الواحدي، ص ٢٠٤.
- (٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة،
 باب فضل إعانة الغازى، ٣/٧٠٠.

لغيره بالتخلف عنه بحال(٤).

ومن المعقول: أن المراد من الجهاد والمقصود به هو دفع شر الكفار وكسر شوكتهم، وإعلاء كلمة الدين وإعزاز الإسلام والمسلمين، وأن يأمن المسلمون ويتمكنوا من القيام بمصالح دينهم ودنياهم، فهو مقصود في نفسه لا باعتبار الفاعل، فلو جعل فرضًا في كل وقت على كل واحدٍ عاد على موضوعه ومقصوده بالنقض والإبطال، إذ لو اشتغل الكل بالجهاد لم يتفرغوا للقيام بمصالح دينهم ودنياهم، وانقطعت مادة الجهاد ووسيلته من الكراع والسلاح والأقوات والتجارة، فيؤدى ذلك إلى تعطيل الجهاد وتركه للعجز عن القيام به، ولهذا ينبغى أن يتولى البعض الجهاد، والبعض التجارة والزراعة والصناعة التي تقوم بها المصالح، فكان فرض كفاية (٥).

وجدير بالذكر هنا الإشارة إلى أن الإمام مالكًا رحمه الله يقول: الجهاد فرض بالأموال والأنفس، فإن منعهم الضرر، أو عاهة بأنفسهم، لم يسقط عنهم الفرض بأموالهم (٢).

⁽٤) انظر: بدائع الصنائع، الصاغاني ٩/ ٤٣٠٠.

⁽٥) انظر: المبسوط السرخسي ٢/١، الكافي، ابن عبد البر ٢٠٨/١، روضة الطالبين، النووي ٢٠٨/١، المغني، ابن قدامة ٩/ ٣٥٩-٣٦٠.

⁽٦) مختصر اختلاف الفقهاء، الجصاص /٣٠٣/١٨ التمهيد، ابن عبد البر ٣٠٣/١٨.

وفي هذا كله يقول الإمام الشافعي رحمه الله: «فإذا كان فرض الجهاد على من فرض عليه محتملًا لأن يكون كفرض الصلاة وغيرها عامًا عينيًا.

ومحتملًا لأن يكون على غير العموم؛ فدل كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم على أن فرض الجهاد إنما هو على أن يقوم به من فيه كفاية للقيام به حتى يجتمع أمران؛ أحدهما: أن يكون بإزاء العدو المخوف على المسلمين من يمنعه، والآخر: أن يجاهد من المسلمين من في جهاده كفاية، فإذا قام بهذا من المسلمين من في من فيه الكفاية به خرج المتخلف منهم من المأثم في ترك الجهاد، وكان الفضل للذين ولوا الجهاد على المتخلفين عنه.

قال الله عز وجل: ﴿لا يَسْتَوِى الْقَاهِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرِرِ وَاللَّجَهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَلِهِمْ وَأَنْفُسِهِمَّ فَضَّلَ اللَّهُ اللَّجَهِدِينَ بِأَمْوَلِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاهِدِينَ دَرَجَةً ﴾ [النساء: ٩٥].

وبينٌ إذ وعد الله عز وجل القاعدين غير أولي الضرر الحسنى أنهم لا يأثمون بالتخلف، ويوعدون الحسنى بالتخلف، بل وعدهم -لما وسع عليهم من التخلف- الحسنى إن كانوا مؤمنين لم يتخلفوا شكًا ولا سوء نية وإن تركوا الفضل في الغزو.

وأبان الله عز وجل في قوله في النفير وأنفِرُوا خِفَافًا النفير حين أمرنا بالنفير: ﴿اَنْفِرُوا خِفَافًا

وَثِقَالًا ﴾ [التوبة: ٤١].

وقال عز وجل: ﴿إِلَّا لَنفِرُوا لَهُ مَوْا التوبة: ٣٩]. يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِمُا ﴾ [التوبة: ٣٩]. وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةِ مِنْهُمْ طَآبِهَةً لِيَنفَقَهُوا فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا طَآبِهَةً لِيَنفَقَهُوا فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا

رَجَعُوا النَّهِمُ لَعَلَّهُمْ يَعَذَرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٢]. فأعلمهم أن فرض الجهاد على الكفاية من المجاهدين.

ولم يغز رسول الله صلى الله عليه وسلم غزاة علمتها إلا تخلف عنه فيها بشرٌ؛ فغزا بدرًا وتخلف عنه رجال معروفون. وكذلك تخلف عنه عام الفتح، وغيره من غزواته صلى الله عليه وسلم، وقال في غزوة تبوك، وفي تجهيزه للجمع للروم: (ليخرج من كل رجلين رجل فيخلف الباقي الغازي في أهله وماله)(١).

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم جيوشًا وسرايا تخلف عنها بنفسه مع حرصه على الجهاد على ما ذكرت. وأبان أن لو تخلفوا معًا أثموا معًا بالتخلف بقوله عز وجل: ﴿إِلَّا نَنفِرُوا يُعَذِّبُكُمْ عَكَابًا

(۱) أخرج الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، بأب فضل إعانة الغازي، رقم ٥٠١٦ عن أبى سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى بنى لحيان ليخرج من كل رجلين رجل.ثم قال للقاعد: أيكم خلف الخارج في أهله وماله بخير كان له مثل نصف أجر الخارج.

أَلِيمًا ﴾ [التوبة: ٣٩].

يعني-والله تعالى أعلم- إلا إن تركتم النفير كلكم عذبتكم. ففرض الجهاد -على ما وصفت- يخرج المتخلفين من المأثم القائم بالكفاية فيه، ويأثمون معًا إذا تخلفوا معًا»(١).

وذهب سعيد بن المسيب رحمه الله إلى أن الجهاد فرض عين مطلقًا على كل مسلم، لقوله تعالى: ﴿ أَنفِرُوا خِفَافًا وَيُقَالًا وَجَنهِ لُوا إِمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَجَنهِ لُوا إِمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَجَنهِ لُولُكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنتُ مَ تَعَلَمُونَ ﴾ [التوبة: ٤١].

وقوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُو كُرُنَهُ الْمَتَالُ وَهُو خَيْرٌ وَعُسَى آن تَكْرُهُوا شَيْعًا وَهُو خَيْرٌ لَكُمُّ وَعُسَى آن تُكْرُهُوا شَيْعًا وَهُو شَرٌّ لَكُمُ وَاللّهُ لَكُمُ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَللّهُ وَاللّهُ مِنْكُمُ وَأَللْهُ وَاللّهُ مِنْكُمُ وَأَللْهُ وَاللّهُ مِنْكُمُ وَأَللْهُ وَاللّهُ وَاللّهُ مِنْكُمُ وَأَللْهُ وَاللّهُ وَالّهُ وَاللّهُ وَاللّ

وقوله صلى الله عليه وسلم: (من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو، مات على شعبة من النفاق)(٢).

كما استدل بجميع أدلة الجمهور التي استدلوا بها على الكفاية، وحملها على الدلالة على فرض العين، وقال: إن القاعدين الموعودين بالحسنى _ في آية سورة النساء السابقة _ كانوا حراسًا في سبيل الله، فهم يقومون بفريضة الجهاد أيضًا.

- (١) الأم، الشافعي ٤/ ٩٠.
- (٢) أخراجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب ذم من مات ولم يغز، رقم ٥٠٤٠.

وقال الداوودي: هو فرض عين على من يلى الكفار^(٣).

وحكي عن ابن عمر وسفيان الثوري وابن شبرمة وعطاء وعبدالله بن حي: أن الجهاد تطوع وليس فرضًا، وأن القائمين به من المسلمين أنصار الله. وقال سحنون –من علماء المالكية –: صار الجهاد تطوعًا بعد فتح مكة.

واستدل بعضهم على هذا بأن قوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ ﴾ إنما هو على الندب لا الوجوب، كقوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَٱلْأَقْرِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا الْوَصِيّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَٱلْأَقْرِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُنْقِينَ ﴾ [البقرة: ١٨٠].

فهي للندب. وبأن الآيات التي تدل على الوجوب مخصوصة، حيث خص النبي صلى الله عليه وسلم فئات لايجوزقتلها كالنساء والصبيان، وعلى هذا فالآيات بعد التخصيص لا تدل على الفرضية.

٢. أن يكون النفير عامًا.

وفي هذه الحالة اتفق جمهور العلماء على أن القتال أو الجهاد فرض عين على كل قادر مستطيع من المكلفين بالجهاد، لأن المقصود من الجهاد –وهو دفع الكفار لا يحصل إلا بهم جميعًا، فالقادر على

 (٣) انظر: القوانين الفقهية، ابن جزي ص ١٥١، المبدع، ابن مفلح ٣/ ٣٠٧، نهاية المحتاج، الشربيني ٨/ ٥٥ – ٤٦. الجهاد يباشر الجهاد بنفسه، وغير القادر من المكلفين يخرج مع المجاهدين لتكثير سوادهم وإرهاب العدو. وعندئذ يخرج الابن بغير إذن والديه، والمرأة بغير إذن زوجها، لأن الخروج في مثل هذه الحال فرض عين على كل أحد.

وما يفوته بترك هذه الفريضة لا يمكنه استدراكه، أما ما قد يفوته بالخروج لها بغير إذن الوالدين -مثلاً فيمكن استدراكه بعد هذا، فيشتغل بما هو الأهم. ولأن الضرر في تركه الخروج للجهاد أعم، فإن ذلك يتعدى إليه وإلى والديه وإلى غيرهم من المسلمين. ولأنه لا يحل لوالديه أن ينهياه عن هذا الخروج، فيكون له أن يخرج ليسقط به الإثم عنه وعنهما، ولا طاعة لهما عليه فيما كانا عاصيين فيه.

ويدل على ذلك كثير من الآيات الكريمة منها قوله تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَهِدُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَهِدُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَهِدُوا بِأَمْوَلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَلِيلِ اللَّهِ اللَّهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: ٤١]، وقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوكُرُهُ لَكُمُ وَعَسَى آن تَكُرَهُوا شَيْعًا وَهُو خَيْرٌ لَكُمُ وَعُسَى آن تَكْرَهُوا شَيْعًا وَهُو شَرِّ لَكُمُ وَاللَّهُ لَكُمُ وَاللَّهُ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦].

٢. شروط القتال.

وأما شروط القتال التي يجب أن تتحقق حتى يكون واجبًا على المكلفين المخاطبين

بهذه الأحكام فهي شروط التكليف بعامة، ويختص القتال ببعض الشروط. وهي بجملتها: الإسلام والبلوغ والحرية والذكورة والقدرة البدنية والمالية للنفقة أو انتفاء العذر. وفيما يأتي إيجاز سريع لها استنباطًا من الآيات الكريمة والأحاديث النبوية وقواعد الأصول(۱).

١. الإسلام.

فإن الخطاب القرآني الكريم توجه للنبي صلى الله عليه وسلم ولأتباعه من المؤمنين المسلمين. ﴿فَقَنْلُ فِي سَبِيلِ اللهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكُ وَحَرِّضِ المُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهِ لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكُ وَحَرِّضِ المُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَاللَّهُ أَشَدُ بَأْسًا وَأَسَّدُ النساء: ١٤٤].

وقال تعالى: ﴿ يَمَا أَيُّهَا ٱلنَّيِّيُ حَمَّرِضِ ٱلمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ﴾ [الأنفال: من الآية ٢٥].

وقال سبحانه: ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَانَ الْمُؤْمِنُونَ فَلِيَنفِرُواْ كَانَ الْمُؤْمِنُونَ فَلَا يَعْفَرُ مِن كُلِّ فِرْقَتْمِ مِنْهُمُ طَآبِفَةً لِيَانَفَقَهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمُ إِذَا رَجَعُواْ اللّهِ مِنْ اللّهُ مُنْ مُثَمَّدُرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٢]. رَجَعُواْ اللّه فِي والعقل.

وهما من شروط التكليف والمخاطبة بالأحكام الشرعية، فإن الصغير الذي لم يبلغ مبلغ الرجال، و المجنون الذي اختل

(۱) انظر: فتح القدير، ابن الهمام ٥/ ٤٤٢، الأم، الشافعي ٤/ ١٦٣، المغني، ابن قدامة ٣١٥/١٠.

عقله، كلاهما غير مخاطب لأنه فاقد الأهلية للخطاب، والمجنون كذلك لا يتأتى منه الجهاد. فقد قال عليه الصلاة والسلام: (رفع القلم عن ثلاثة: عن المجنون المغلوب على عقله حتى يبرأ، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يحتلم)(١).

٣. الحرية.

لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يبايع الأحرار على الإسلام والجهاد، ويبايع العبيد على الإسلام دون الجهاد (٢).

والعبد لا يملك المال و النفقة للجهاد، وهو مشغول بأمر سيده المالك له، فلا يجب عليه القتال. ويلاحظ أن الرق في عصرنا هذا انتهى وجوده -بعامة- فالبحث في هذا بحث تاريخي فقط.

٤. الذكورة.

فلا يجب القتال إلا على الرجال، ولا

(۱) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، رقم ٩٤٠، وأبو داود في سننه، كتاب الحدود، باب المجنون يسرق أو يصيب حدًا، رقم ٤٤٠٠. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١٩٥٢، رقم ٢٥١٢.

(٢) قال ابن الملقن في البدر المنير ٩/ ٣٩: هذا الحديث صحيح لا يحضرني من خرجه من هذا الوجه، ويغني عنه في الدلالة ما في «صحيح مسلم» من حديث جابر بن عبد الله قال: جاء عبدٌ فبايع النبي صلى الله عليه وسلم على الهجرة ولم يشعر أنه عبد، فجاء سيده يريده فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: بعنيه، فاشتراه بعبدين أسودين، ثم لم يبايع أحدًا بعد حتى يسأله أعبدٌ هو ؟.

يلزم النساء، إلا أن يتطوعن فيه للحاجة، أو عندما يكون فرض عين لا فرض كفاية. وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها قالت: (استأذنت النبي صلى الله عليه وسلم في الجهاد، فقال: (جهادكن الحج)(٣).

٥. القدرة وسلامة البدن.

فلا يجب القتال على من فقد القدرة بسبب المرض أو العمى أو غير ذلك مما يتعذر معه القتال، أو يعجز صاحبه عنه كالعاجز و الشيخ الكبير في السن، وضعيف البنية، والمقعد والأعرج.

والله تعالى يقول: ﴿ لَيْسَ عَلَى الشُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الشُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى النَّبِيثِ لَا يَعِيدُونَ مَا عَلَى الَّذِيثِ لَا يَعِيدُونَ مَا عَلَى الَّذِيثِ لَا يَعِيدُونَ مَا عَلَى مَا يُنفِقُونَ حَرَّجُ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِيَّ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَنَفُورٌ تَرْحِيمٌ ﴾ المُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَنفُورٌ تَرْحِيمٌ ﴾ [التوبة: ٩١].

وقال سبحانه: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْيِسِ حَرَجٌ وَمَن يُعِلِعِ ٱللّهَ وَلَاعَلَى ٱلْمَرْيِسِ حَرَجٌ وَمَن يُعِلِعِ ٱللّهَ وَرَسُولُهُ. يُدَخِلُهُ جَنّنتِ بَعْرِي مِن تَعْتِهَا ٱلْأَنْهُ وَمَن يَعْرِي مِن تَعْتِهَا ٱلْأَنْهُ وَمَن يَعْرِي مِن تَعْتِهَا ٱلْأَنْهُ وَمَن يَعْرِي مِن تَعْتِهَا ٱلْأَنْهُ وَمَن يَعْرِهُ وَمَن يَعْرِهُ وَمَن يَعْرِهُ عَدَابًا آلِيمًا ﴾ [الفتح: ١٧].

٦. وجود النفقة.

فلا يجب القتال على من تعوزه النفقة



⁽٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد، باب جهاد النساء، رقم ٢٨٧٥، ٢٨٧٥. قال الحافظ ابن حجر تعليقًا عليه: لهن أن يتطوعن بالجهاد، ولم يكن واجبًا عليهن، لما فيه من مغايرة المطلوب منهن من الستر ومجانبة الرجال.فتح الباري ٢/ ٧٦.

للجهاد (۱) فلا يجدها ولا يقدر عليها، وقد كان المجاهدون يخرجون للجهاد وينفقون على انفسهم ويشترون أدوات القتال والسلاح. وأما عندما تتكفل الدولة بالنفقات والأدوات و الأسلحة فإن فقد هذا الشرط لا يؤثر في الحكم.

ثانيًا: حكم الاعتذار والتخلف عن القتال:

ألمحت فيما سبق إلى بعض الآيات الكريمة التي تعلي من مكانة الجهاد، فهو ذروة سنام الإسلام، وأحد مبانيه العظام، وهو طريق العزة و الكرامة. وفي هذا

المطلب إشارات إلى ما يقابل ذلك، حيث تنزلت آيات كثيرة فيها تحذير من التخلف عن القتال أو الاعتذار عنه مالم يكن للمرء عذر، وتنوعت أساليب القرآن الكريم في ذلك. وفيما يأتي طائفة منها.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا أَصَكِبُكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْمُعْمَعِينَ ﴿ وَلِيعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ وَلِيعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ وَلِيعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ وَلِيعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ وَلِيعْلَمَ الْمَؤْمِنِينَ ﴿ وَلِيعْلَمَ الْمَؤْمِنِينَ ﴿ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهُ اللَّلَّ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُو

فهؤلاء المتخلفون عن القتال والجهاد بالنفس لم يحملهم على التخلف والتقاعس إلا النفاق والكذب والمراوغة، فإذا دعاهم الرسول والمؤمنون للجهاد والقتال، وقيل لهم: تعالوا قاتلوا ودافعوا عن محارمكم وبلدكم، إن لم يكن لكم نية صالحة، فأبوا ذلك واعتذروا بأن قالوا: لو نعلم أنكم يصير بينكم وبينهم قتال لا تبعناكم، وهم كذبة في بينكم وبينهم قتال لا تبعناكم، وهم كذبة في هذا، فقد علموا وتيقنوا، وعلم كل أحد أن هؤلاء المشركين، قد ملئوا من الحنق والغيظ على المؤمنين بما أصابوا منهم، وأنهم قد بذلوا أموالهم، وجمعوا ما يقدرون عليه من الرجال والعدد، وأقبلوا في جيش عظيم من الرجال والعدد، وأقبلوا في جيش عظيم

⁽١) أعوز الرجل إعوازًا: افتقر.وأعوزه الدهر: أفقره. انظر: المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٤٣٧.

قاصدين المؤمنين في بلدهم، متحرقين على قتالهم، فمن كانت هذه حالهم، كيف يتصور أنهم لا يصير بينهم وبين المؤمنين قتال؟ خصوصًا وقد خرج المسلمون من المدينة وبرزوا لهم، هذا من المستحيل.

ولكن المنافقين ظنوا أن هذا العذر، يروج على المؤمنين، فقال تعالى عنهم: ﴿ مُمَّمَ لِلْكُفْرِيَوْمَهِذِ ﴾ أي: في تلك الحال التي تركوا فيها الخروج مع المؤمنين ﴿ أَقْرَبُ مِنْهُمَ لِلْإِيمَانِ ۚ يَتُولُونَ لِأَفْوَهِمِ مَا لَكُمْ لِلْإِيمَانِ ۚ يَتُولُونَ لِأَفْوَهِمِ مَا لَكُمْ لِلْإِيمَانِ أَي يَتُولُونَ لِأَفْوَهِمِ مَا لَيَسَ فِي قُلُوبِهِم ﴾ وهذه خاصة المنافقين، يظهرون بكلامهم وفعالهم ما يبطنون ضده في قلوبهم وسرائرهم (۱).

وهذه نماذج أخرى غنية عن التعليق في بيان حكم المتخلفين والمعتذرين والآثار المترتبة على ذلك من وعيد وتهديد وذلة في الدنيا مع ما ينتظرهم من عذاب في الأخرة (٢).

قال الله تعالى: ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ يَمَعُ عَدِهِمْ خِلَفَ رَسُولِ اللّهِ وَكُوهُواْ أَن يُجَهِدُوا يَمَعُ عَدُوا اللّهِ وَكَاهُواْ اللّهَ يَعَالُواْ اللّهَ يَعَالُواْ اللّهَ يَعَالُواْ اللّهَ يَعْمُواْ فَي اللّهِ وَقَالُواْ اللّهُ عَلَيْهُ اللّهُ وَقَالُواْ اللّهُ عَلَيْهُ اللّهُ وَقَالُواْ اللّهُ عَلَيْهُ اللّهُ وَاللّهُ عَلَيْهُ اللّهُ عَلَيْهُ اللّهُ الل

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٥٦.

(٢) انظر: الجهاد في سبيل الله، محمد عزة دروزة، ص٣٨-٥ و١١٤-١٢٧.

وقال تعالى: ﴿ يَكَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱذَّكُّرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُرْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ نَرُوهِكًا وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا اللهِ إِذْ جَآءُوكُم مِن فَوَقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصُلُرُ وَيَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنْكَ إِجِرَ وَيَظْنُونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِي ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالَا شَدِيدًا ١ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَكِفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِ قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُمْ إِلَّا غُرُورًا اللَّهِ وَإِذْ قَالَت ظَايِفَةٌ مِنْهُمْ يَتَأَهَّلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُورَ فَٱرْجِعُواْ وَيَسْتَغْذِنُّ فَ رِيقٌ مِنْهُمُ ٱلنِّي يَقُولُونَ إِنَّ بُيُونَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِي بِعَوْرَةً إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ١٠ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقَطَارِهَا ثُمَّ شَيِلُوا ٱلْفِتْ نَةَ لَآتَوُهَا وَمَا تَلْبَثُواْ بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ١ اللَّهُ وَلَقَدٌ كَانُواْ عَنْهَ دُواْ اللَّهَ مِن فَيْلُ لَا يُولُونَ ٱلْأَدْبَارُ وَكَانَ عَهَدُ ٱللَّهِ مَسْعُولًا ﴿ [الأحزاب: ٩-١٥].

وقال الله تعالى أيضًا: ﴿ أَلَوْ تَرَ إِلَى اللَّهِ يَعَالَى أَيضًا: ﴿ أَلَوْ تَرَ إِلَى اللَّهِ يَعْلَمُ مَنْ أَقِيلُوا الصَّلُوةَ وَءَاثُوا الزَّكُوةَ فَلَمَّا كُنِبَ عَلَيْهُمُ الْفِنَالُ إِذَا فَرِقُ مِنْهُمْ يَغْشُونَ النَّاسَ كَخَشْيَةً وَقَالُوا رَبِّنَا لِرَ كَنَبْتَ عَلَيْنَا الْفِنَالَ لَوْلَا أَخْرَنَنَا إِلَىٰ آجَلٍ قَرِبِ قُلْ مَنْكُ عَلَيْنَا الْفِنَالَ لَوْلَا أَخْرَنَنَا إِلَىٰ آجَلٍ قَرِبِ قُلْ مَنْكُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ وَالْأَنْفُونَ النَّالَ اللَّهُ اللَّهُ وَاللَّهُ وَلَا نَظْلَمُونَ اللَّهُ اللَّهُ وَلَا نَظْلَمُونَ اللَّهُ اللَّهُ وَلَا نَظْلَمُونَ اللَّهُ اللَّهُ وَلَا نَظْلُمُونَ اللَّهُ وَلَا لَنُظْلَمُونَ اللَّهُ اللَّهُ وَلَا لَنُظْلَمُونَ اللَّهُ وَلَا لَنُولُوا مَنْكُ

فَئِيلًا ﴿ النساء: ٧٧].

ثالثًا: حكم الفيء والغنيمة والأسر والجزية:

إذا قام القتال ونشبت الحرب وظهر المسلمون على أعدائهم، فإن هذا يرتب آثارًا في أموال الحربيين وأشخاصهم، فيتملك المسلمون الأموال والبلاد المفتوحة، وهذه هي الغنائم، وقد يأخذون أموالا منهم بالصلح كالجزية، أو بدون حرب وهو الفيء، ويكون الأشخاص أسرى وسبايا إذا وقعوا في يد المسلمين بالقتال(١).

وفي هذا يقول العلامة علاء الدين الكاساني: «إذا ظهر الإمام على بلاد أهل الحرب، فالمستولى عليه لا يخلو من أحد أنواع ثلاثة: المتاع، والأراضي، والرقاب»(۲).

ويقول ابن رشد الحفيد: «وأما ما يجوز من النكاية لا تخلو من النكاية في العدو؛ فإن النكاية لا تخلو أن تكون في الأموال، أو في النفوس، أو في الرقاب، أعنى: الاستعباد والتملك»(٣).

هذه كلها آثار تترتب على قيام الحرب، ولذلك نتناولها في الفقرات الآتية:

(٣) انظر: بداية المجتهد ونهاية المقتصد، ابن رشد: ٢/ ٣٨٢.

١. الفيء.

الفيء في اللغة هو الرجوع. وفي الاصطلاح الفقهي: هو ما أخذ من أموال أهل الحرب صلحًا من غير قتال، أو بعد أن تضع الحرب أوزارها، كالخراج والجزية ونحو ذلك. وقد سمي هذا المال فيتًا؛ لأن الله أفاء به على المسلمين، ففاء إليهم -أي رجع- بلا قتال(٤).

وقد تنزلت الآيات الكريمة في بيان أحكام الفيء، فقال الله تعالى في بيان مشروعيتها وحكمتها: ﴿ وَمَا أَفَادَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَرْجَفْتُمْ عَكْيهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكَابٍ وَلَاكِنَ اللّهَ يَسْلِطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَاءً وَاللّهُ عَلَى حَيْلٍ شَي مِنْ اللّهُ عَلَى حَيْلٍ شَي مِن اللّهُ عَلَى حَيْلٍ شَي مِن اللّهُ عَلَى حَيْلٍ اللّهُ عَلَى حَيْلٍ شَي مِن اللّهُ عَلَى حَيْلٍ اللّهُ عَلَى حَيْلٍ اللّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ اللّهُ مَن اللّهُ وَاللّهُ عَلَى حَيْلٍ اللّهُ وَاللّهُ عَلَى مَسْولِهِ مِنْ أَهْلِ اللّهُ وَاللّهُ عَلَى اللّهُ وَاللّهُ وَلَا اللّهُ وَلَلْهُ وَلَا اللّهُ وَلَا اللّهُ وَلَا اللّهُ وَلَا اللّهُ وَلَا اللّهُ وَلَا اللّهُ وَلَسُولُهُ وَاللّهُ وَلَا اللّهُ اللّهُ اللّهُ وَلَا اللّهُ وَلَا اللّهُ وَلَا اللّهُ وَلَاللّهُ اللّهُ اللللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّ

قال المفسرون: طلب المسلمون من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخمس أموال بنى النضير لما أجلوا، فنزلت هذه الآية

⁽۱) انظر: أصول العلاقات الدولية في فقه الإمام محمد بن الحسن الشيباني، عثمان ضميرية ٢/ ١١٨٥-٤-١١٨٠.

⁽٢) انظر: بدائع الصنائع، الكاساني ٩/ ٤٣٤٧.

⁽٤) انظر: المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٥٤٥، ٥٨٥، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٥٦٨، معجم المصطلحات المالية والاقتصادية، نزيه حماد، ص٣٥٦.

تبين أنها فيء لم تحصل لهم بمحاربتهم، وإنما هو بتسليط رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو له خاصة، يفعل فيه ما يشاء. فقسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين، ولم يعط الأنصار منه شيئًا، إلا ثلاثة نفر كانت بهم حاجة، وهم: أبو دجانة، وسهل بن حنيف، والحارث بن الصمة (۱).

وذلك أن بني النضير لما تركوا رباعهم وضياعهم طلب المسلمون من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقسمها بينهم، كما فعل بغنائم خيبر، فبين الله تعالى في هذه الآية أنها فيءٌ لم يوجف المسلمون عليها خيلا ولا ركابًا، ولم يقطعوا إليها شقة ولا بني النضير لرسول الله صلى الله عليه وسلم بني النضير لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة يضعها حيث يشاء، فقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم الله عليه وسلم بن المهاجرين، ولم يعط الأنصار منها شيئًا إلا ثلاثة نفر كانت بهم حاجة.

وروى البخاري عن مالك بن أوس بن الحدثان النضري، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دعاه إذ جاءه حاجبه يرفأ فقال: هل لك في عثمان وعبد الرحمن والزبير وسعد يستأذنون؟ قال: نعم، فأدخلهم، فلبث يرفأ قليلًا ثم جاء فقال: هل لك في عباس وعلي

(۱) زاد المسير، ابن الجوزي ٢٥٧/٤. وانظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/٢٧٣، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢٨٦/٥.

يستأذنان؟ قال: نعم، فلما دخلا قال عباس: يا أمير المؤمنين اقض بيني وبين هذا -وهما يختصمان في الذي أفاء الله على رسوله من بني النضير- فقال الرهط: يا أمير المؤمنين اقض بينهما وأرح أحدهما من الآخر، قال: اتئدوا أنشدكم بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا نورث ما تركنا صدقة) يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه؟ قالوا: قد قال ذلك، فأقبل عمر على على وعباس، فقال: أنشدكما بالله هل تعلمان أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذلك؟ قالا: نعم. قال: فإني أحدثكم عن هذا الأمر، إن الله كان خص رسول الله صلى الله عليه وسلم في الفيء بشيء لم يعطه أحدًا غيره، فقال: ﴿ وَمَا أَفَّاهُ أَلَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُدُ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلِ وَلَارِكَابٍ ﴾ إلى قوله: هُوَيْدِيرٌ ﴾.

وكانت هذه خالصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما احتازها دونكم ولا استأثرها عليكم، لقد أعطاكموها وبثها فيكم حتى بقي منها هذا المال، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفق على أهله نفقة سنتهم من هذا المال، ثم يأخذ ما بقي فيجعله مجعل مال الله، فعمل بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم حياته، ثم توفي النبي صلى الله عليه وسلم حياته، ثم توفي النبي صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر: أنا ولي

رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقبضها أبو بكر رضي الله تعالى عنه فعمل بها بما عمل به فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنتم حينتذ جميع.

وأقبل على علي وعباس فقال: تذكران أبا بكر فعل فيه كما تقولان، والله يعلم إنه فيها صادق بار راشد تابع للحق، ثم توفى الله أبا بكر، فقلت: أنا ولي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر فقبضتها سنتين من إمارتي أعمل فيها بما عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبو بكر والله يعلم إني فيه صادق بارٌ راشد تابع للحق، ثم جئتماني كلاكما وكلمتكما واحدة، وأمركما جميع فقلت لكما: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا نورث ما تركنا صدقة).

فلما بدا لي أن أدفعه إليكما قلت: إن شتما دفعته إليكما على أن عليكما عهد الله وميثاقه لتعملان فيها بما عمل به رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر، وبما عملت به فيها منذ وليتها وإلا فلا تكلماني فيها، فقلتما: ادفعها إلينا بذلك فدفعتها إليكما؟ أفتلتمسان مني قضاء غير ذلك؟ فو الله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض لا أقضي فيها قضاء غير ذلك حتى تقوم الساعة، فإن عجزتما عنها فادفعاها إلى فإني أكفيكما(١).

(۱) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الفرائض، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم (لا نورث ما تركناه صدقة)، ۲/۱۲،

وقوله عز وجل ﴿ مَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ عِنْ أَهْلِ الْقُرْئِ ﴾ يعني: من أموال كفار أهل القرى، قال ابن عباس: هي قريظة والنضير وفدك وخيبر وقرى عرينة ﴿ فَلِلّهِ وَالرَّسُولِ وَلِذِى القَرْفَ وَالْمَسْكِكِينِ وَابِّنِ السِّيلِ ﴾. ومال الفيء كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته يضعه حيث يشاء وكان ينفق منه على أهله نفقة سنتهم ويجعل ما بقي مجعل مال الله (٢).

وأما مصرف الفيء الذي أشارت إليه الأيات الكريمة، فقد اختلف فيه العلماء.

قال محيي السنة البغوي رحمه الله: واختلف أهل العلم في مصرف الفيء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم: فقال: قوم هو للأئمة بعده. وللشافعي فيه قولان: أحدهما: هو للمقاتلة، والثاني: لمصالح المسلمين، ويبدأ بالمقاتلة ثم بالأهم فالأهم من المصالح (٣).

وأما مقدار ما يعطى وهل يخمس أم لا؟ فيقول فيه البغوي أيضًا (٤): واختلفوا

ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد، باب حكم الفيء، رقم ١٧٥٧، ٣/ ١٣٧٧ – ١٣٧٩.

⁽٢) قال الحافظ ابن حجر في الكافي الشافي ص١٦٦: ذكره الثعلبي بغير سند.

 ⁽٣) معالم التنزيل، البغوي ٨ ٧٣/.
 وانظر: الجامع لأحكام القرآن، القران، القرطبي
 ١٥/١٨، أحكام القرآن، الجصاص ٥/ ٣١٧،
 أحكام القرآ، ابن العربي ٤/ ٢١٣-٢١٥.

⁽٤) معالم التنزيل، البغوي ٨/ ٧٣.

في تخميس مال الفيء؛ فذهب بعضهم إلى أنه يخمس، فخمسه لأهل الغنيمة، وأربعة أخماسه للمقاتلة وللمصالح، وذهب الأكثرون إلى أنه لا يخمس بل مصرف جميعه واحد، ولجميع المسلمين فيه حق، قرأ عمر بن الخطاب: ﴿ مَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ عِنْ أَهْلِ بَنْ الخطاب: ﴿ مَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ عِنْ اللّهِ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ عِنْ اللّهِ اللّهُ عَلَى وجه الأرض مَلْمَ الله على وجه الأرض مسلم إلا له في هذا الفيء حق إلا ما ملكت أيمانكم (١١).

وقوله تعالى: ﴿كَالَا يَكُونَ دُولَةٌ ﴾ قرأ العامة بالياء، «دولة» نصب أي: لكيلا يكون الفيء دولة، وقرأ أبو جعفر: «تكون» بالتاء «دولة» بالرفع على اسم كان، أي: كيلا يكون الأمر إلى دولة، وجعل الكينونة بمعنى الوقوع وحينئذ لا خبر له. «والدولة» اسم للشيء الذي يتداوله القوم بينهم ﴿بَيْنَ الرَّفِساء والأقوياء، فيغلبوا عليه الفقراء والضعفاء، وذلك أن أهل الجاهلية كانوا إذا اغتنموا غنيمة أخذ الرئيس ربعها لنفسه، وهو المرباع، ثم الرئيس ربعها لنفسه، وهو المرباع، ثم يصطفي منها بعد المرباع ما شاء، فجعله الله

(۱) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الإمارة، باب في تدوين العطاء، ٤/ ٢١٤. قال المنذري: وهذا منقطع، الزهري لم يسمع من عمد

لرسوله صلى الله عليه وسلم يقسمه فيما أمر به، ثم قال: ﴿وَمَا ءَانَكُمُ ﴾ أعطاكم من الفيء والغنيمة ﴿فَخُ دُوهُ وَمَا تَهَكُمُ عَنْهُ ﴾ الغلول وغيره ﴿فَانَنَهُوا ﴾. وهذا نازل في أموال الفيء، وهو عام في كل ما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم ونهى عنه (٢).

٢. الغنيمة.

أصل الغنيمة في اللغة: الربح والفضل. وفي الاصطلاح الفقهي: هي ما أخذ من أموال أهل الحرب عنوة، والحرب قائمة. وتجمع على غنائم (٣).

وقد تناولت الآيات الكريمة أحكام الغنائم وتوزيعها على الغانمين، وربطت ذلك بالإيمان بالله تعالى والخضوع لأحكامه، وأبانت أن الغنائم ليست هي الهدف أو الغاية الأصلية من القتال، ولكن الله تعالى أحلها لهم. فقال الله تعالى: ولكن وأعَلَمُوا أَنَّما غَنِعْتُم مِن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَهِ خُمْسَهُ، وللرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْنَى وَالْلِيَتَهُم وَن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَهِ خُمْسَهُ، وللرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْنَى وَالْلِيتَهُم وَاللَّه وَمَا أَزَلْنَا وَأَبْنِ السَّيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم وَاللَّهُ وَمَا أَزَلْنَا وَأَلْمَ عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرَقَانِ يَوْمَ الْنَعَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُتَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْفَتَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْفَتَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْفَتَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرَقَانِ يَوْمَ الْفَتَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْفَتَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَيْهِ وَمَا الْفَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُتَى الْفَالَ: ١٤].

أي: ما أخذتم من مال الكفار قهرًا بحقٍ،

⁽٢) معالم التنزيل، البغوي ٨/ ٧٤.

⁽٣) انظر: المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٥٤٥، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٥٤٦، معجم المصطلحات المالية والاقتصادية، نزيه حماد ص٣٤٨.

قليلًا كان أو كثيرًا ﴿ فَأَنَّ لِلْهِ خُسُكُه ﴾ أي: وباقيه لكم أيها الغانمون، لأنه أضاف الغنيمة إليهم، وأخرج منها خمسها. فدل على أن الباقي لهم، يقسم على ما قسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم: للراجل سهم، وللفارس سهمان لفرسه، وسهم له.

وأما هذا الخمس، فيقسم خمسة أسهم، سهم لله ولرسوله، يصرف في مصالح المسلمين العامة، من غير تعيين لمصلحة، لأن الله جعله له ولرسوله، والله ورسوله غنيان عنه، فعلم أنه لعباد الله. فإذا لم يعين الله له مصرفًا، دل على أن مصرفه للمصالح العامة. والخمس الثاني: لذي القربي، وهم قرابة النبي صلى الله عليه وسلم من بني هاشم وبني المطلب. وأضافه الله إلى القرابة دليلًا على أن العلة فيه مجرد القرابة، فيستوي فيه غنيهم وفقيرهم، ذكرهم وأنثاهم. والخمس الثالث لليتامي، وهم الذين فقدت آباؤهم وهم صغار، جعل الله لهم خمس الخمس رحمة بهم، حيث كانوا عاجزين عن القيام بمصالحهم، وقد فقد من يقوم بمصالحهم. والخمس الرابع للمساكين، أي: المحتاجين الفقراء من صغار وكبار، ذكور وإناث. والخمس الخامس لابن السبيل، وهو الغريب المنقطع به في غير بلده.

وبعض المفسرين يقول: إن خمس الغنيمة لا يخرج عن هذه الأصناف ولا

يلزم أن يكونوا فيه على السواء بل ذلك تبع للمصلحة وهذا هو الأولى (١).

قال الفقهاء: إن أموال الحربيين الذين لم يسلموا، إذا ظهر المسلمون عليهم في الحرب فغنموا أموالهم، فيجب على إمام المسلمين أن يقسم الغنيمة ويخرج خمسها للأصناف الذين ذكرهم الله تعالى بقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّما غَنِمَتُم مِن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَى وَالْمَسَكِينِ وَالْمَسْكِينِ وَالْمَسَكِينِ وَالْمَسَلَعِينَ وَالْمَسَلَعِينِ وَالْمَسَلَعِينَ وَالْمَسَلَعِينَ وَالْمَسَكِينِ وَالْمَسَلَعِينَ وَالْمَسَلَعِينَ وَالْمَسْتُ وَالْمَسَلَعِينَ وَالْمَسَلَعِينَ وَالْمَسْتُعِينَ وَالْمُسْتُعِينَ وَالْمَسْتُعِينَ وَالْمَسْتُ وَالْمَسْتُعِينَ وَالْمَسَلَعِينَ وَالْمُولِ وَلِي اللّهِ اللهِ الْمَالَعِينَ وَالْمَسْتُ وَالْمَسْتُعِينَ وَالْمَسْتُ وَالْمَسْتُعِينَ وَالْمَسْتُعِينَ وَالْمَسْتُ وَالْمَسْتُعِينَ وَالْمَسْتُعِينَ وَالْمَسْتُ وَالْمَسْتُعِينَ وَالْمَسْتُ وَالْمَسْتُعِينَ وَالْمَسْتُعِينَ وَالْمَسْتُ وَالْمَسْتُعِينَ وَالْمَسْتُ وَالْمَسْتُ وَالْمَالِقِينَ وَالْمَسْتُعِينَ وَالْمَسْتُعِينَ وَالْمَسْتُ وَالْمَالِي فَيْ وَالْمَسْتُ وَالْمُسْتُعِينَ وَالْمُسْتُعِينَ وَالْمَسْتُ وَالْمَسْتُ وَالْمُعَلِقِ وَلَيْسِ فَيْ الْمُعْلَى وَالْمَالَ وَالْمَالُ وَالْمَالُ وَالْمَالُونَ وَالْمَالُ وَالْمَالُ وَالْمَالُ وَالْمَالُونُ وَالْمَالُ وَالْمِلْعِينَا وَالْمَالُ وَالْمَالُ وَالْمَالُ وَالْمَالُ وَالْمَالُ وَالْمَالُ وَالْمَالُ وَالْمُولُ وَالْمُلْعِيْسُلِعُ وَالْمَالُ وَالْمِالْمُونُ وَالْمَالُ وَالْمُسْتُونُ وَالْمَالُونُ وَالْمَالُ وَالْمَالُونُ وَالْمُسْ

ويقسم الأربعة الأخماس على الغانمين ولا خيار للإمام فيه، للنصوص الواردة في ذلك، وعليه انعقد الإجماع (٢).

ولذلك لا يجوز للإمام أن يمن على هؤلاء بأموالهم المنقولة المجردة فيردها عليهم، لأنه لم يرد به الشرع في هذا المال، ولأنه لا يدوم بل ينقطع، والجواز باعتبار الدوام نظرًا لهم ولمن يجئ بعدهم. ولهذا لا يجوز أيضًا المن بالرقاب وحدها بدون الأرض، لأنه ينقطع بالموت والإسلام، وإنما يجوز تبعًا للأراضي - كما سبق - كيلا يشتغلوا بالزراعة عن الجهاد، ثم إذا من عليهم بالأراضي والرقاب فإنه يدفع إليهم من المنقول قدر ما يتهيأ لهم به العمل، لأن

⁽۱) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٢١-٣٢٢.

⁽۲) انظر: السير الكبير، الشيباني ٣/ ١٠٠٤، فتح القدير، ابن الهمام ٤/ ٣٠٥.

عمر رضي الله عنه ترك لهم ذلك، وهو القدوة في هذا الباب، ولأن منفعة الأرض بالزراعة، وهم لا يقدرون على الزراعة إلا بآلتها، فيكره له أن يكلفهم بها بدون الآلة (١٠). وهو ما ذهب إليه جماهير العلماء واتفقوا عليه، فقد قال الإمام أبو جعفر الطبري: «أجمع الكل من الحجة لا خلاف بينها أن أربعة أخماس الغنيمة للمقاتلة» (٢٠).

وكذلك نقل ابن حزم وابن هبيرة الاتفاق على أن أموال أهل الحرب كلها -عدا الأرض- تخمس، وتدفع الأربعة الأخماس للغانمين، فقال ابن حزم: «اتفقوا أن الخمس يخرج مما غنم عسكر المسلمين، أو عشرة من المسلمين الأحرار البالغين العقلاء الرجال، من الحيوان -غير بني آدم- ومما غنم من الأثاث والسلاح والمتاع كله الذي ملكه أهل الحرب، بعد أن يخرج منه سلب المقتولين، وما أكل المسلمون من الطعام أو احتملوه» (٣).

وبعد هذا الإيجاز لحكم المسألة وأقوال العلماء فيما تدل عليه الآيتان الكريمتان؛ فإن الموقف لا يسمح بتفسير كل الآيات المتعلقة بذلك، فحسبنا أن نعرض بعضها لما فيها من توجيهات، كقوله تعالى:

(٣) انظر: مراتب الإجماع، ابن حزم، ص ١١٤. الإفصاح، ابن هبيرة ٢/ ٢٧٦.

﴿ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهُ إِنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهُ عَفُورٌ رَبِّعِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٢٩].

وهذه الآية الكريمة افتتحها الله تعالى بحرف الفاء وهي تؤذن بتفريع هذا الكلام على ما قبله. وفي هذا التفريع وجهان:

أحدهما: الذي جرى عليه كلام المفسرين أنه تفريع على قوله: ﴿ لَّوْلَاكِئْنَبُّ مِنْ اللهِ سَبَقَ لَمُسَكَمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابُ عَظِيمٌ اللهِ الأنفال: ٢٨].

أي: لولا ما سبق من حل الغنائم لكم لمسكم عذاب عظيم، وإذ قد سبق الحل فلا تبعة عليكم في الانتفاع بمال الفداء. وقد روي أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَيْنَ أَنْ لَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ ﴾ [الأنفال: ٢٧].

أمسكوا عن الانتفاع بمال الفداء، فنزل قوله تعالى: ﴿ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَكَلًا طَيِّبًا ﴾ وعلى هذا الوجه قد سمي مال الفداء غنيمة، تسمية بالاسم اللغوي دون الاسم الشرعي؛ لأن الغنيمة في اصطلاح الشرع هي ما افتكه المسلمون من مال العدو بالإيجاف عليهم.

والوجه الثاني: يظهر أن التفريع ناشئ على التحذير من العود إلى مثل ذلك في المستقبل، وأن المعنى: فاكتفوا بما تغنمونه ولا تفادوا الأسرى إلى أن تثخنوا في الأرض. وهذا هو المناسب لإطلاق اسم الغنيمة هنا إذ لا ينبغي صرفه عن معناه الشرعي. ولما تضمن قوله: ﴿ لَوْلَا كِنَكُ مِنَ

⁽١) انظر: المصادر السابقة.

⁽٢) اختلاف الفقهاء، الطبري، ص ٦٨.

ٱللَّهِ سَبَقَ ﴾ [الأنفال: ٦٨].

امتنانًا عليهم بأنه صرف عنهم بأس العدو، فرع على الامتنان الإذن لهم بأن ينتفعوا بمال الفداء في مصالحهم، ويتوسعوا به في نفقاتهم، دون نكد ولا غصة، فإنهم استغنوا به مع الأمن من ضر العدو بفضل الله. فتلك نعمة لم يشبها أذى. وعبر عن الانتفاع الهنيء بالأكل؛ لأن الأكل أقوى كيفيات الانتفاع بالشيء، فإن الآكل ينعم بلذاذة المأكول وبدفع ألم الجوع عن نفسه ودفع الألم لذاذة ويكسبه الأكل قوة وصحة والصحة مع القوة لذاذة أيضًا (۱).

وقوله سبحانه: ﴿ سَكَيْقُولُ ٱلْمُخَلَفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَيِعَكُمْ مُرْيِدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ ٱللَّهُ قُل لَن تَتَيِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَعُولُونَ بَلْ تَحْشُدُونَنَا بَلْ كَانُواْ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الفتح: ١٥].

أي: سيقول المخلفون، إذا انطلقت اليها النبي - أنت وأصحابك إلى غنائم «خيبر» التي وعدكم الله بها: اتركونا نذهب معكم إلى «خيبر»، يريدون أن يغيروا بذلك وعد الله لكم. قل لهم: لن تخرجوا معنا إلى «خيبر»؛ لأن الله تعالى قال لنا من قبل رجوعنا إلى «المدينة»: إن غنائم «خيبر» هي لمن شهد «الحديبية» معنا، فسيقولون:

ليس الأمر كما تقولون، إن الله لم يأمركم بهذا، إنكم تمنعوننا من الخروج معكم حسدًا منكم؛ لئلا نصيب معكم الغنيمة، وليس الأمر كما زعموا، بل كانوا لا يفقهون عن الله ما لهم وما عليهم من أمر الدين إلا يسيرًا(").

والمعنى الإجمالي للآيات: وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها في أوقاتها التي قدرها الله لكم فعجل لكم غنائم «خيبر»، وكف أيدي الناس عنكم، فلم ينلكم سوء مما كان أعداؤكم أضمروه لكم من المحاربة والقتال، ومن أن ينالوا ممن تركتموهم وراءكم في «المدينة»، ولتكون هزيمتهم وسلامتكم وغنيمتكم علامة تعتبرون بها، ويستدلون على أن الله حافظكم وناصركم، ويرشدكم طريقا مستقيما لا اعوجاج فيه. وقد وعدكم الله غنيمة أخرى لم تقدروا عليها، الله سبحانه وتعالى قادر عليها، وهي تحت تدبيره وملكه، وقد وعدكموها، ولا بد من وقوع ما وعد به. وكان الله على كل

⁽٢) التفسير الميسر ص٥١٢.

⁽۱) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٧٨-٩٧.

شيء قديرًا لا يعجزه شيء. ولو قاتلكم كفار قريش بر «مكة» لانهزموا عنكم وولوكم ظهورهم، كما يفعل المنهزم في القتال، ثم لا يجدون لهم من دون الله وليًا يواليهم على حربكم، ولا نصيرًا يعينهم على قتالكم (١٠). ويجدر أن أختم هذه الفقرة عن الغنائم

في العصر الحاضر بالقول: إن بعض العلماء المعاصرين يرى أن القرآن الكريم لم ينص على وجوب توزيع الغنائم الحربية -حتى المنقولة منها- بين المجاهدين الفاتحين، وإنما نصت آية الأنفال على مصارف معينة لخمس الغنائم، وأن توزيع الأخماس الأربعة على الغانمين إنما جاءت به السنة، وهو من السياسة الشرعية والتدابير المصلحية التي يفعلها النبي عليه الصلاة والسلام بصفة ولايته العامة في الحكم والإدارة، فلا تفيد حقًا تشريعيًا ثابتًا لا يتبدل.

بل إن كل من يخلف النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الولاية العامة أن يلجأ إلى تدبير آخر عند الحاجة، كما كان ذلك ممكنًا للنبي نفسه صلى الله عليه وسلم. فإذا تبدلت الظروف واقتضت الحاجة نظامًا آخر للجندية تقوم فيه حقوق الجيش المجاهد لا على اقتسام الغنيمة، بل على أساس إعاشة ووظائف مالية مرتبة للجند، وتكون الغنائم الحربية كلها للدولة ولاحق فيها للمقاتلين،

كما في زماننا وأنظمتنا اليوم، فذلك سائغ شرعًا، وهو من قبيل الاستصلاح في شؤون الإدارة العامة.

غير أن نظام توزيع الغنائم كان في صدر الإسلام هو التدبير الممكن من الوجهة المالية، وهو الأصلح أيضًا لسياسة الجهاد بالنسبة إلى العرب في ذلك الزمن من الوجهة العرفية (٢).

٣. الجزية.

الجزية في اللغة: مشتقة من الجزاء -وهو المكافأة على الشيء - يقال: جزاه به وعليه جزاء، وجازاه مجازاة وجزاء. وهي على وزن فعلة لأنها تدل على الهيئة - أي هيئة أخذ المال - والجمع جزى وجزيٌ وجزيٌ وجزيٌ وجزيٌ.

وفي الاصطلاح الفقهي: هي المال الذي يؤخذ من الكفار بعقد الذمة مقابل حمايتهم وعصمة دمائهم بخضوعهم لنظام الإسلام، وإقامتهم في دار الإسلام. سميت بذلك؛ لأنها تجزئ الذمي عن القتل، فإنه إذا قبلها سقط عنه القتل؛ لأن الله تعالى جعل إعطاءها حند عدم الإسلام سببًا لمنع

⁽١) المصدر السابق، ص ١٣ ٥.



⁽٢) المدخل الفقهي العام، مصطفى الزرقا ١٨٢/١ - ١٨٢.

وانظر: آثار الحرب في الفقه الإسلامي د.وهبة الزحيلي، ص١٣٥.

⁽٣) انظر: الصحاّح، الجوهري ٢٣٠٢/٦-٢٣٠٣، المصباح المنير، الفيومي ١٠٠٠.

القتل(١).

وكان وضع الجزية على الشعوب المغلوبة عادة مألوفة منذ عهد طويل قبل الإسلام، وقد سلك المسلمون سبيل من سبقهم في هذه الوسائل المالية بعد أن صبغها الإسلام بصبغة خاصة، وجعلها عنوانًا على الخضوع العام للنظام الإسلامي، وكان هذا يغلب على الجانب المالي، فكان المسلمون يصالحون الذميين على الجزية، ويعفون فريقًا منهم منها فيأخذونها باسم الصدقة -كبني تغلب- وقد يسقطونها عنهم لأسباب ومسوغات.

وفي مشروعية الجزية التي تترتب على عقد الذمة للكفار الذين يرتضون بها، يقول الله تعالى: ﴿ قَنْلِلُوا الذَّيْنَ لَا يُؤْمِنُونَ مَا حَرَّمَ الله وَلَا يُكَوِّمُونَ مَا حَرَّمَ الله وَلَا يُلِينُونَ مَا حَرَّمَ الله أَوْرَبُ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ الله أَوْرَبُ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ الله وَرَسُولُهُ، وَلَا يَدِينُونَ وَيَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ الله أَوْرَبُ الله الله وَرَسُولُهُ، وَلَا يَدِينُونَ وَيَا يُعَطُوا اللَّحِزِيدَة عَن يَدِ وَهُمُّ صَلْعُرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩].

وأجمع العلماء على أن الجزية تؤخذ من الرجل البالغ العاقل الصحيح البدن الموسر إذا كان حرَّا. واختلفوا بعد ذلك في بعض الجزيات والصور. وتسقط الجزية بعد وجوبها بأسباب أربعة: الإسلام و الموت؛

وحدوث آفة على الذمي تمنع وجوب الجزية، كأن صار أعمى أو فقيرًا لا يقدر على شيء، و إذا اجتمعت جزية سنين، فتسقط عنه (٢).

والذي يذكر هنا أن الجزية على الذميين، ونظام الذمة الذي بحثه الفقهاء، انتهى العمل به في الواقع منذ نشأة الدولة القومية المعاصرة، وعدم قيامها على أساس الدين والعقيدة الدينية، وظهور الدولة المدنية ونظام المواطنة والجنسية المعاصرة، منذ أواخر عهد الدولة العثمانية.

٤. الأسرى.

الأسر في اللغة العربية هو الحبس والإمساك. أو هو الشد بالقيد، مأخوذ من قولهم: أسرت القتب، بمعنى شددته. ومنه سمي الأسير؛ لأنهم كانوا يشدونه بالقد وهو الإسار. ثم كثر استعماله حتى سمي كل من يؤخذ قهرًا: أسيرًا، وإن لم يشد أو يقيد (٣).

ويعرف الفقهاء الأسرى بأنهم الرجال المقاتلون من الكفار الذين ظفر بهم المسلمون في الحرب. كما يطلق الأسير على الحربي الذي دخل دار الإسلام دون عهد أو أمان فوقع في يد المسلمين قبل أن

⁽۱) انظر: فتح القدير، ابن الهمام ٤/ ٣٦٧، الشرح الكبير، الدردير ٢٠١/٢، مغني المحتاج، الشربيني ٤/ ٢٤٢، كشاف القناع، البهوتي ١٠٨/٣.

⁽۲) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٢١، زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٢٢٩-٢٣٠.

⁽٣) انظر: الصحاح، الجوهري، ٢/ ٥٧٨، مقاييس اللغة، ابن فارس ١٠٧/١، لسان العرب، ابن منظور ١٩/٤ - ٢٠.

يسلم. ويقسم الفقهاء الأسرى إلى أقسام، ولكل منهم أحكام تخصه (١).

وحسبنا هنا الإشارة إلى الآيات الكريمة في الأسر وأحكام الأسرى ومعاملتهم، مع إضاءات سريعة حول ذلك من أقوال المفسرين وأهل العلم.

قال الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَيْ أَن يَكُونَ لَهُ أَسَرَىٰ حَنَّى يُثَيِّفِ ﴿ مَا كَانَ لِنَيْ أَن يَكُونَ لَهُ وَاللَّهُ مَنْ يُثْفِضَ فِي الْأَرْضِ ثُويدُونَ عَرَضَ اللَّهُ عَالَيْ لَي الْأَرْضِ أَوْ اللَّهُ عَزِيدُ عَرَضَ اللَّهُ عَن اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ عَيْدِدُ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ عَيْدِدُ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ عَيْدِدُ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيما أَخَذْتُمْ عَذَابُ عَظِيمٌ ﴿ اللَّهُ قَكُلُوا مِما غَيْمَتُمُ عَلَيْ اللَّهُ اللَّهُ عَلَيْ اللَّهُ اللَّهُ عَلَيْ اللَّهُ اللَّهُ عَلَيْ اللَّهُ عَلَيْ اللَّهُ عَلَيْ اللَّهُ عَلَيْ اللَّهُ عَلَيْ اللَّهُ عَلَيْ اللَّهُ اللَّهُ عَلَيْ اللَّهُ عَلَيْ اللَّهُ عَلَيْ اللَّهُ الْمَلْعُمُ اللَّهُ عَلَيْ اللَّهُ الْمَلْعُلُمُ اللَّهُ عَلَيْ اللَّهُ عَلَيْ اللَّهُ الْمُعْلِقُ اللَّهُ عَلَيْمُ اللَّهُ عَلَيْكُوا اللَّهُ عَلَيْ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّهُ عَلَيْكُوا اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ عَلَيْكُولُولُ اللَّهُ الْمُؤْلِقُ اللَّهُ الْمُؤْلِقُ اللَّهُ الْمُؤْلِقُ اللَّهُ الْمُؤْلِقُ اللَّهُ الْمُؤْلِقُ اللَّهُ الْمُؤْلِقُ الْمُؤْلِقُ الْمُؤْلِقُ الْمُؤْلِقُ اللَّهُ الْمُؤْلُولُ اللَّهُ الْمُؤْلِقُ الْمُؤْلِقُ الْمُؤْلِقُ اللَّهُ الْمُؤْلِقُ الْمُؤْلِقُ الْمُؤْلِقُ الْمُؤْلِقُ اللَّهُ الْمُؤْلِقُ الْمُؤْلِقُ الْمُؤْلِقُ الْمُؤْلِقُ الْمُؤْلِقُ الْمُؤْلِقُ الْمُؤْلِقُ اللَّهُ الْمُؤْلِقُ الْمُؤْلِقُ الْمُؤْلِقُ

وقد نزلت هذه الآيات الكريمة هذه معاتبة من الله لرسوله وللمؤمنين يوم «بدر» إذ أسروا المشركين وأبقوهم لأجل الفداء، فكانت بيانًا لما هو الأجدر والأولى فيما ينبغى في شأن الأسرى وتقرير مصيرهم.

قال الإمام محيي السنة البغوي رحمه الله (۲): روى الأعمش عن عمر بن مرة، عن أبي عبيد، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (لما كان يوم بدر وجيء بالأسرى، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما

تقولون في هؤلاء؟) فقال أبو بكر: يا رسول الله قومك وأهلك فاستبقهم، واستأن بهم، لعل الله أن يتوب عليهم، وخذ منهم فدية، تكون لنا قوة على الكفار.

وقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله كذبوك وأخرجوك، قدمهم نضرب أعناقهم، مكن عليًّا من عقيل فيضرب عنقه، ومكني من فلان -نسيب لعمر- فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أثمة الكفر.

وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله انظر واديًا كثير الحطب فأدخلهم فيه ثم أضرم عليهم نارًا. فقال له العباس: قطعت رحمك. فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يجبهم، ثم دخل.

فقال ناس: يأخذ بقول أبي بكر، وقال ناس: يأخذ بقول عمر، وقال ناس: يأخذ بقول ابن رواحة.

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال (إن الله تعالى ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن، ويشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّكُ مُنْ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [إبراهيم:

ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى حيث قال: ﴿ إِن تُعَدِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكُ وَإِن تَغَفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزَيْزُ لَقَرَيمُ اللهِ الله

⁽۲) معالم التنزيل ٣/ ٥٧٥–٣٧٦.



⁽۱) انظر: شرح السير الكبير ٥/ ٢١٩٥ - ٢١٩٦، الأحكام المبسوط، السرخسي ١٤/١، الأحكام السلطانية، الماوردي، ص ١٣١، روضة الطالبين، النووي ١٠/١٥٠.

وإن مثلك يا عمر مثل نوح حيث قال: ﴿ رَبِّ لَا نَذَرْ عَلَى ٱلأَرْضِ مِنَ ٱلكَفِيرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح:٢٦].

ومثل موسى قال: ﴿ رَبَّنَا اَطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوِسْ عَلَىٰ أَمَّوْلِهِمْ ﴾ [يونس: ٨٨].

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أنتم اليوم عالة، فلا يفلتن منهم أحد إلا بفداء أو ضرب عنق).

قال عبد الله بن مسعود: إلا سهيل بن بيضاء فإني سمعته يذكر الإسلام، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما رأيتني في يوم أخوف من أن تقع علي الحجارة من السماء من ذلك اليوم، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إلا سهيل بن بيضاء)(١).

قال ابن عباس: قال عمر بن الخطاب فهوي رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت، فلما كان من الغد جثت فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر قاعدين يبكيان، قلت: يا رسول الله أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أبكي للذي عرض علي الله عليه وسلم: أبكي للذي عرض علي

أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة، لشجرة قريبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنزل الله تعالى هذه الآيات (٢٠).

وأخبرهم أنه لأجل ما علم في قلوبهم من الخير غفر لهم فلم يعذبهم بتسرعهم إلى إسار من لم يأمرهم به الرسول صلى الله عليه وسلم للمفاداة دون توقف على إذنه، ورحمهم فأحسن إليهم فأحل لكم الغنائم ولما ساق سبحانه وتعالى هذه البشارة في النذارة، سبب عنها قوله: ﴿ فَكُلُوا مِمَا عَنِيمَةُمُ ﴾ أي: من الفدية وغيرها حال كونه حَنَيمَتُمُ ﴾ أي: لا درك ولا تبعة فيه من جهتي حَنِيمًا لطباعكم.

وهذا إذا كان مع الشروط التي أقمتها لكم من عدم الغلول والخيانة بوجه من الوجوه والاستئثار وشدة الرغبة السائقة إلى ما لا يليق من التنازع وغيره، ذلك فيما تقدمت فيه إليكم ﴿وَأَنَّقُوا الله ﴾ أي: الذي له جميع صفات الكمال في جميع ذلك، فلا تغلوا ولا تنازعوا ولا تقدموا إلا على ما يبيحه لكم الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿إِنَّ الله عليه وسلم ﴿إِنَّ الله عليه وسلم ﴿إِنَّ الله عليه أي: المتصف بالجلال والإكرام ﴿عَفُورٌ ﴾ أي: لمن يعلم من قبله أنه من أهل التقوى أي: لمن يعلم من قبله أنه من أهل التقوى ﴿رَحِيمٌ ﴾ له؛ لأنه أهل للرحمة، فلأجل

(۲) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٣٧٦.وانظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي

وانظر: الجامع لاحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٤٦، زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٢٢٤.

قال الترمذي: هذا حديث حسن، وأبو عبيدة لم يسمع من أبيه.

⁽١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب التفسير، تفسير سورة الأنفال، ٨/ ٤٧٦.

ما علم في قلوبكم من الخير غفر لكم فلم يعذبكم بتسرعكم إلى إسار من لم يأمركم به الرسول صلى الله عليه وسلم للمفاداة دون توقف على إذنه، ورحمكم فأحسن إليكم فأحل لكم الغنائم (١).

وبعد هذا البيان والعتاب ثم الإقرار للتصرف والعفو عنهم فيما كان منهم خلاف الأولى و الأجدر، بعد هذا كله يلمس القرآن الكريم قلوب الأسرى لمسة تحيي فيها الرجاء، وتطلق فيها الأمل، وتشيع فيها النور، وتعلقها بمستقبل خير من الماضي، وبحياة أكرم مما كانوا فيه، وبكسب أرجح مما فقدوا من مال وديار. وبعد ذلك كله بالمغفرة والرحمة من الله.

قال الله تعالى: ﴿ يَنَائَيُهَا ٱلنَّيَّ قُل لِمَن فِي الْمَدِيكُم مِن ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ اللَّهُ فَيُعْفِرُ لَكُمُ اللَّهُ عَنْورٌ لَرَّكُمُ اللَّهُ عَنُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٧٠].

وهذه الآية نزلت أيضًا في أسارى يوم بدر، وكان في جملتهم العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما طلب منه الفداء، ادعى أنه مسلم قبل ذلك، فلم يسقطوا عنه الفداء، فأنزل الله تعالى هذه الآية جبرًا لخاطره، ومن كان على مثل حاله، وقد أنجز الله وعده للعباس وغيره، فحصل له -بعد ذلك - من المال شيء كثير، حتى

ركم به وسلم مال كثير، أتاه العباس فأمره أن يأخذ الله دون منه بثوبه ما يطيق حمله، فأخذ منه ما كاد أن إليكم يعجز عن حمله (٢).
وهذا الخير كله –وقد وعدهم الله

وهذا الخير كله -وقد وعدهم الله به- معلق بأن تصلح قلوبهم، فتتفتح لنور الإيمان، فيعلم الله أن فيها خيرًا، والخير هو الإيمان حتى ما يحتاج إلى ذكر وتنصيص، الخير محض الخير، ولا يسمى الشيء ما خيرًا إلا أن يستمد منه وينبثق منه ويقوم عليه.

إنه مرة لما قدم على النبي صلى الله عليه

إن الإسلام إنما يستبقي الأسرى لديه، ليلمس في قلوبهم مكامن الخير والرجاء والصلاح، وليوقظ في فطرتهم أجهزة الاستقبال والتلقي والتأثر والاستجابة للهدى. لا ليستذلهم انتقامًا، ولا ليسخرهم استغلالًا كما كانت تتجه فتوحات الرومان، وكما تتجه فتوحات الأجناس والأقوام! عن الزهري عن جماعة سماهم قال: بعثت قريش في فداء أسراهم، ففدى كل قوم

⁽١) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٨/ ٣٣١-٣٣٢.



⁽۲) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ۳۲۷.

قال أبو حيان في البحر المحيط: ٥/ ٣٥٥: نزلت هذه الآية عقيب بدر في أسرى بدر أعلموا أن لهم ميلا إلى الإسلام وأنهم يؤملونه إن فدوا ورجعوا إلى قومهم، وقيل: في عباس وأصحابه قالوا للرسول: آمنا بما جئت ونشهد أنك رسول الله لننصحن لك على قومنا.

وجل)^(۲).

وقال العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه: (يا رسول الله قد كنت مسلمًا! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الله أعلم بإسلامك، فإن تكن كما تقول فإن الله يجزيك، وأما ظاهرك فقد كان علينا، فافتد نفسك وابني أخيك نوفل بن الحارث ابن عبد المطلب، وعقيل بن أبي طالب بن عبد المطلب، وحليفك عتبة بن عمرو أخي بني الحارث بن فهر): قال: ما ذاك عندي يا رسول الله!

أسيرهم بما رضوا(١).

قال: (فأين المال الذي دفنته أنت وأم الفضل، قلت لها: إن أصبت في سفري هذا فهذا المال الذي دفنته لبني الفضل وعبد الله وقثم؟). قال: (والله يا رسول الله إني لأعلم أنك رسول الله. إن هذا لشيء ما علمه أحد غيري وغير أم الفضل، فاحسب لي يا رسول الله ما أصبتم مني عشرين أوقية من مال كان معى!

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا، ذاك شيء أعطانا الله تعالى منك). ففدى نفسه وبني أخويه وحليفه، فأنزل الله عز وجل الآية. قال العباس رضي الله عنه: فأعطاني الله مكان العشرين الأوقية في الإسلام عشرين عبدًا كلهم في يده مال يضرب به، مع ما أرجو من مغفرة الله عز

وبعد نزول هذه الآيات الكريمة، نزلت في سورة محمد (وهي أيضًا سورة القتال) في إجراءات القتال وتحديد مصير الأسرى بعد انتهاء القتال.

فقال الله تعالى: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ اللَّهِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ اللَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ الرِّفَافِ حَقَّ إِذَا أَفْضَتُمُ وَمُرْ فَشُدُّواْ الْوَقَاقَ فَإِمَّا مَثَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِلْكَا خَقَ تَضَعَ الْمُرَّبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ مَثْنَا بَعْدُ وَإِمَّا فَلِكَ وَلَوْ يَشْهُمُ وَلَذِينَ لِيَبْلُواْ بَعْضَكُم بِبَعْمِنِ لللهِ مَثَلَّةُ مَا لَكُ لَا يَعْضَكُم بِبَعْمِنِ لَمُ اللَّهُ لَا يَعْضَكُم بِبَعْمِنِ لَمُ اللَّهُ اللَّهُ لَا يَعْضَكُم بِبَعْمِنِ لَمُ اللَّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الل

والخطاب في هذه الآية الكريمة موجه إلى المسلمين كما هو المتبادر. وقد تضمنت أمرًا لهم بأن عليهم إذا لقوا الكافرين في الحرب أن يصدقوا في قتالهم، حتى إذا أكثروا فيهم القتل وقهروهم وضمنوا لأنفسهم الغلبة عليهم جنحوا إلى أسر ما بقي منهم، ويظل أمرهم معهم على هذا المنوال حتى تنتهي حالة الحرب، ويتخلص الناس من أعبائها. كما تضمنت تشريعا في الناس من أعبائها. كما تضمنت تشريعا في بعد ذلك: فإما أن يمنوا ويتفضلوا عليهم بعد ذلك: فإما أن يمنوا ويتفضلوا عليهم فيطلقوهم بدون فداء وإما أن يطلقوهم بدون فداء وإما أن يطلقوهم بدون فداء وإما أن يطلقوهم

قال البغوي رحمه الله: واختلف العلماء

⁽١) في ظلال القرآن ٣/ ٥٥٣.

⁽٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٣٧٨.

⁽٣) انظر: الجهاد في سبيل الله، محمد عزة دروزة، ص١٣٨-١٣٩.

في حكم هذه الآية:

فقال قوم: هي منسوخة بقوله تعالى: ﴿ فَإِمَّا نَثْقَفَنَهُمْ فِ ٱلْحَرْبِ فَشَرِدَ بِهِم مَنَ خَلْفَهُمْ ﴾ [الأنفال:٥٧]. وبقوله: ﴿ فَأَقَنُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدَنَّمُوهُمْ ﴾ [التوبة:٥].

وإلى هذا القول ذهب قتادة والضحاك والسدي وابن جريج، وهو قول الأوزاعي وأصحاب الرأي، قالوا: لا يجوز المن على من وقع في الأسر من الكفار ولا الفداء.

وذهب آخرون إلى أن الآية محكمة، والإمام بالخيار في الرجال العاقلين من الكفار إذا وقعوا في الأسر بين أن يقتلهم، أو يسترقهم، أو يمن عليهم فيطلقهم بلا عوض، أو يفاديهم بالمال أو بأسارى المسلمين، وإليه ذهب ابن عمر، وبه قال الحسن، وعطاء، وأكثر الصحابة والعلماء، وهو قول الثوري، والشافعي، وأحمد وإسحاق.

قال ابن عباس: لما كثر المسلمون واشتد سلطانهم أنزل الله عز وجل في الأسارى: ﴿ فَإِمَّا مِنْدُ وَإِمَّا فِذَاتُهُ ﴾ (١).

وهذا الذي قاله ابن عباس وأكثر الصحابة والعلماء هو الأصح والاختيار؛ لأنه عمل به رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء

وبعد هذه الإشارات إلى تقرير مصير الأسرى، تأتي آيات كريمة في الدعوة إلى معاملة الأسير معاملة تشي بالأخلاق الإسلامية العالية والعدالة التي تسع الجميع، وبالإحسان بكل مظاهره، وبخاصة في الأمور المادية والمعيشية، وقرن الله تعالى فيها الإحسان إلى الأسير -ولوكان غير مسلم- بالإحسان إلى المسكين واليتيم، وكلاهما يستحق الرعاية والإحسان بمقتضى العقيدة والإيمان بالله تعالى (٣).

وهذا كله في سياق صورة وضيئة شفافة لقلوب مخلصة جادة عازمة على الوفاء لله بتكاليف العقيدة، مع رحمة ندية بعباده الضعاف، وإيثار على النفس، وتحرج وخشية لله، ورغبة في رضاه، وإشفاق من عذابه، تبعثه التقوى والجد في تصور الواجب الثقيل.

يقول الله تعالى: ﴿ وَيُطْمِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُيِّدِ مِسْكِينَا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿ أَيَّا نَظُمِمُكُو لِوَجْدِ اللَّهِ لَا نُهِدُ مِنْكُرُ جُزَلَهُ وَلَا شُكُورًا ﴿ أَنَا نَعَافُ مِن زَيِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا فَعَلَمُ مِن رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا فَعَلَمُ مِن رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا فَعَلَمُ مِن رَبِّنَا يَوْمًا اللهِ اللهُ اللهِ اللهِ اللهُ اللهِ اللهُ اللهِ اللهُ اللهِ اللهُ ا

⁽۱) عزاه السيوطي في الدر المنثور ١٠٨/٤ لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما.



بعده (۲).

⁽٢) معالم التنزيل، البغوي ٧/ ٢٧٨.

⁽٣) قال الرازي في تفسيره مفاتح الغيب (٣) قال الرازي في تفسيره مفاتح الطاعات محصورة في أمرين: التعظيم لأمر الله تعالى، وإليه الإشارة بقوله: (يوفون بالنذر)، والشفقة على خلق الله، وإليه الإشارة بقوله: (ويطعمون الطعام).

وهي تصور شعور البر والعطف والخير ممثلًا في إطعام الطعام، مع حبه بسبب الحاجة إليه (١).

فمثل هذه القلوب لا يقال عنها: إنها تحب الطعام الذي تطعمه للضعاف المحتاجين على اختلاف أنواعهم، إلا أن تكون في حاجة هي إلى هذا الطعام، ولكنها تؤثر به المحتاجين بأريحية نفس، ورحمة قلب، وخلوص نية، واتجاه إلى الله بالعمل، يحكيه السياق من حالهم، ومن منطوق قلوبهم فهي الرحمة الفائضة من القلوب الرقيقة الرفيقة، تتجه إلى الله تطلب رضاه، ولا تبغي بها جزاء من الخلق ولا شكرًا، ولا تقصد بها استعلاء على المحتاجين ولا خيلاء، كما تتقي بها يومًا عبوسًا شديد العبوس، تتوقعه وتخشاه، وتتقيه بهذا الوقاء (٢).

أما الأسير فقد اختلفوا فيه على أقوال (٣):

- (۱) أحدها: على حب الطعام وقلته وشهوتهم له وحاجتهم، والثاني: على حب الله عز وجل. والثالث: على قلته، قاله قطرب. والرابع: قال الفضيل بن عياض: على حب إطعام الطعام. انظر هذه الأقوال وأصحابها في: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٩٦- ٩٧، معالم التنزيل، البغوي الطبري ٢٨ / ٢٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢٨ / ٢٠.
 - (٢) انظر: في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٨١-٣٧٨٢.
- (٣) قال مجاهد وسعيد بن جبير وعطاء: هو المسجون من أهل القبلة.وقال قتادة: أمر الله بالأسراء أن يحسن إليهم، وإن أسراهم يومئذ لأهل الشرك.وقيل: الأسير المملوك.

والذي يناسب السياق هو ما قاله ابن عباس، والحسن، وقتادة: إنه الأسير من المشركين، فقد روي أنه عليه الصلاة والسلام كان يبعث الأسارى من المشركين ليحفظوا وليقام بحقهم، وذلك لأنه يجب إطعامهم إلى أن يرى الإمام رأيه فيهم من قتل أو فداء أو استرقاق، القتل في حال لا يمنع من الإطعام في حال أخرى، ولا يجب إذا عوقب بوجه أن يعاقب بوجه آخر، ولذلك لا يحسن فيمن يلزمه القصاص أن يفعل به ما هو دون القتل. الإمام يطعمه، فإن لم يفعله الإمام وجب الأمام يطعمه، فإن لم يفعله الإمام وجب على المسلمين (3).

قال البقاعي رحمه الله: وقد نقل في غزوة بدر أن بعض الصحابة رضي الله عنهم كان يؤثر أسيره على نفسه بالخبز، وكان الخبز إذ ذاك عزيزًا، حتى كان ذلك الأسير يعجب من مكارمهم حتى كان ذلك مما دعاه إلى الإسلام، وذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما دفعهم إليهم قال: «استوصوا بهم خيرًا» ومن حكم الأسير الحقيقي كل مضرور، يفعلون ذلك

وقيل: المرأة، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: اتقوا الله في النساء فإنهن عندكم عوان».

انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٩٧-٩٨، معالم التنزيل، البغوي ٨/ ٢٩٤، زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٣٧٧.

⁽٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠/٧٤٧.

والحال أنهم يقولون بلسان الحال أو القال - إن احتيج إليه - إزاحة لتوهم المن أو توقع المكافأة، مؤكدين إشارة إلى أن الإخلاص أمر عزيز لا يكاد أحد يصدق أنه يتأتى لأحد: ﴿ إِنَّمَا نَظُمِنُكُو ﴾ أيها المحتاجون ﴿ لِرَبِّهِ اللهِ أَي: لذات الملك الذي استجمع الجلال والإكرام؛ لكونه أمرنا بذلك (١).

نتائج القتال وعواقبه

للقتال والجهاد نتائج، ويعقبهما ثمرات في الفرد نفسه وفي الأمة، فهو يربي النفس على البذل والتضحية، ويشعر المسلم بالعزة الحقيقية الكاملة، ويدفع خطر الأعداء ويكسر شوكتهم، كما يدفع الفتنة وينشر الأمن في المجتمع، وفيه شفاء لصدور المؤمنين وإغاظة للكافرين والظالمين المعتدين.

وسيتم الحديث عنها في النقاط الآتية: لًا: تربية النفيد علم البذل

أولًا: تربية النفس على البذل والتضحية:

في الجهاد والقتال يبذل المسلم المجاهد عاية الجهد والوسع، فهو يبذل نفسه وماله ووقته في سبيل الله تعالى لا يبتغي مكافأة من الناس ولا شكرًا منهم وحمدًا، ولا يريد علوًّا في الأرض ولا فسادًا، فيرتفع إلى آفاق عالية من البذل والعطاء لخير البشرية وهدايتها وصيانتها من العدوان والظلم، لتشعر بحريتها الحقيقية في عبوديتها لله واستسلامها لشرعه وخضوعها له. وبذلك تتحقق الخيرية التي وصف الله تعالى بها هذه الأمة في قوله: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتَ هذه الأمة في قوله: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتَ النيسِ تَأُمُّونَ بِاللَّهِ الله عنه في تفسيرها: المُنتَ وَنَقُونِ وَتَتَهُونَ عَنِ الله عنه في تفسيرها: المُنتَ وَمِن الله عنه في تفسيرها: المُنتَ وَمِن الله عنه في تفسيرها: قال أبو هريرة رضى الله عنه في تفسيرها: قال أبو هريرة رضى الله عنه في تفسيرها:

⁽۱) نظم الدرر، البقاعي ۲۱/ ۱۳۹. وانظر: شريعة الإسلام في الجهاد والعلاقات الدولية، أبو الأعلى المودودي، ص ۱۹۳

«كنتم خير الناس للناس، تأتون بهم في الأقياد والسلاسل حتى تدخلوهم الجنة، يبذلون أموالهم وأنفسهم في الجهاد لنفع الناس، فهم خير الأمم للخلق. والخلق عيال الله، فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله» فصارت الأمة بذلك خير أمة أخرجت للناس، وأفلح بذلك المقاتلون. وهذا هو مقصود الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وهذا من معنى كون محمد صلى الله عليه وسلم ما أرسل إلا رحمة للعالمين، فهو رحمة في حق كل أحد بحسبه، حتى المكذبين له هو في حقهم رحمة أعظم مما كان غيره رحمة للناس (۱).

وهذه بعض الآيات الكريمة التي تربي نفس المؤمن على البذل والتضحية و العطاء، قد تذكر نتيجة واحدة أو نوعًا واحدًا من هذه التربية، وقد تجمعها كلها في سياق واحد.

قال الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلَا تُلْقَوُا فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلَا تُلْقَالُوا بِأَيْدِيكُو إِلَى اَلتَهَاكُوهُ وَأَحْسِنُوا اللّهَ اللّهَ يُحِبُّ اللّهَ يُحِبُّ اللّهَ عَلَيْهِ اللّهُ عَلَيْهِ اللّهُ عَلَيْهِ اللّهُ عَلَيْهِ اللّهُ اللّهُ عَلَيْهِ اللّهُ عَلَيْهِ اللّهُ عَلَيْهِ اللّهُ اللّهُ عَلَيْهُ اللّهُ اللّهُ عَلَيْهُ عَلَيْهُ اللّهُ اللّهُ عَلَيْهُ اللّهُ اللّهُ عَلَيْهُ عَلَيْهُ عَلَيْهُ عَلَيْهُ اللّهُ اللّهُ عَلَيْهُ عَلَيْهُ اللّهُ اللّهُ عَلَيْهُ عَلَيْهُ اللّهُ عَلَيْهُ اللّهُ اللّهُ عَلَيْهُ عَلَيْهُ اللّهُ اللّهُ عَلَيْهُ اللّهُ عَلَيْهُ اللّهُ عَلَيْهُ عَلَيْهُ عَلَيْهُ عَلَيْهُ عَلَيْهُ اللّهُ ال

واختلف المفسرون في تأويل هذه الآية الكريمة:

فقال بعضهم: هذا في البخل وترك الإنفاق. أي: لا تلقوا أنفسكم بأيديكم إلى الهلاك بترك الإنفاق في سبيل الله. وهو قول

حذيفة والحسن وقتادة وعكرمة وعطاء. وقال ابن عباس في هذه الآية: أنفق في سبيل الله وإن لم يكن لك إلا سهم أو مشقص (٢) ولا يقولن أحدكم: إني لا أجد شيئًا. وقال: السدي: أنفق في سبيل الله ولو عقالًا، ولا تقل: ليس عندي شيء. وقال: سعيد بن المسيب ومقاتل بن حيان: لما أمر الله تعالى بالإنفاق قال رجل: أمرنا بالنفقة في سبيل الله، ولو أنفقنا أموالنا بقينا فقراء، فأنزل الله هذه الآية. وقال مجاهد: لا يمنعنكم من نفقة في حقّ خيفة العيلة. قال أبو عبيدة: سمعت في حقّ خيفة العيلة. قال أبو عبيدة: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من أنفق نفقة فل سبيل الله فسبعمائة، ومن أنفق نفقة على أهله فالحسنة بعشر أمثالها) (٣).

وقيل: أنزلت الآية في ترك الجهاد، قال أبو أيوب الأنصاري: نزلت فينا معشر الأنصار؛ وذلك أن الله تعالى لما أعز دينه ونصر رسوله قلنا فيما بيننا: إنا قد تركنا أهلنا وأموالنا حتى فشا الإسلام ونصر الله نبيه، فلو رجعنا إلى أهلينا وأموالنا فأقمنا فيها فأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله تعالى هذه

⁽۱) انظر: فتاوى ابن تيمية ٢/ ٣٣٨، و١٠/ ٥٩.

⁽٢) المشقص: سهم عريض له نصلٍّ.

⁽٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل النفقة في سبيل الله: ٥/ ٢٥٤.

قال الترمذي: هذا حديث حسن.

ص المرسني. منه حميت حسن. وصححه أحمد شاكر في تعليقه على المسند ٢/ ١٤٤.

الآية. ف «التهلكة» الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد. فما زال أبو أيوب يجاهد في سبيل الله حتى كان آخر غزوة غزاها بقسطنطينية في زمن معاوية فتوفى هناك ودفن في أصل سور القسطنطينية، وهم يستسقون به^(۱).

متناقضين، فإنّ ترك الجهاد فيه إلقاء بالنفس إلى الهلاك، وترك النفقة هو ترك للجهاد بالمال، وانشغال بالزرع والمادة والمال عن الجهاد. وهذا من اختلاف التنوع في التفسير، وليس من اختلاف التضاد^(٢).

ثم تأتى آيات أخرى في سورة البقرة توجيهًا للمنفقين في سبيل الله، وهم الذين جادوا بالمال ابتغاء وجه الله، فكأن الجهاد في سبيل الله والقتال لإعلاء كلمة الله يعود المقاتل على البذل والإنفاق، فالنفس والمال شقيقان، ومن يجود بنفسه لن يبخل

وهذان القولان متلازمان وهما غير

ىمالە.

قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمُوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنَّا وَلَا أَذَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفُ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ إِنَّ قُولٌ مَّعْرُونٌ وَمَغْفِرَةً خَيْرٌ مِن صَدَقَةِ يَتْبَعُهُا أَذًى وَاللَّهُ غَنَّ حَلِيمٌ ﴿ [البقرة: ٢٦٢-٢٦٣].

وهاتان آيتان من سورة البقرة في سياق البناء الاقتصادي والتكافل الاجتماعي، وقد تكررت الدعوة إلى الإنفاق في هذه السورة، والآن يرسم السياق دستور الصدقة في تفصيل وإسهاب، مظللًا بظلال حبيبة أليفة، ويبين آدابها النفسية والاجتماعية؛ الآداب التي تحول الصدقة عملًا تهذيبيًا لنفس معطيها وعملًا نافعًا مربحًا لآخذيها، وتحول المجتمع عن طريقها إلى أسرة يسودها التعاون والتكافل، والتواد والتراحم، وترفع البشرية إلى مستوى كريم: المعطى فيه والآخذ على السواء.

ومع أن التوجيهات التي وردت في هذا الدرس تعد دستورًا دائمًا غير مقيد بزمن ولا بملابسات معينة، إلا أنه لا يفوتنا أن نلمح من وراثه أنه جاء تلبية لحالات واقعة، كانت النصوص تواجهها في الجماعة المسلمة يومذاك- كما أنها يمكن أن تواجهها في أي مجتمع مسلم فيما بعد- وأنه كانت هناك نفوس شحيحة ضنينة بالمال تحتاج إلى

⁽١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ١/٢١٦.

⁽٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وغالب ما يصح عن السلف في التفسير من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد. وذلكَ صنفان: أحدهماً: أن يعبر كل واحد منهم عن المراد بعبارة غير عبارة صاحبه تدل على معنى في المسمى غير المعنى الآخر.و الصنف الثاني: أن يذكر كلّ منهم من الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل وتنبيه المستمع على النوع، لا على سبيل الحد المطابق للمحدود في عمومه وخصوصه. انظر: مجموع فتاوي ابن تيمية ١٣/ ٣٣٣.

هذه الإيقاعات القوية، والإيحاءات المؤثرة كما تحتاج إلى ضرب الأمثال، وتصوير الحقائق في مشاهد ناطقة كيما تبلغ إلى الأعماق! كان هناك من يضن بالمال. فلا يعطيه إلا بالربا. وكان هناك من يتبع النفقة بالمن أو مرائيًا. وكان هناك من يتبع النفقة بالمن والأذى. وكان هناك من يقدم الرديء من ماله ويحتجز الجيد، وكل هؤلاء إلى جانب المنفقين في سبيل الله مخلصين له، الذين يجودون بخير أموالهم، وينفقون سرًّا في موضع العلانية في موضع العلانية في موضع العلانية في تجرد وإخلاص ونقاء (1).

ونقل الإمام البغوي عن الكلبي: أن هذه الآية نزلت في عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف - رضي الله تعالى عنهما جاء عبد الرحمن بأربعة آلاف درهم صدقة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله كانت عندي ثمانية آلاف، فأمسكت منها لنفسي وعيالي أربعة آلاف درهم، وأربعة آلاف أقرضتها ربي، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بارك الله فيما أمسكت لك وفيما أعطيت)، وأما عثمان فجهز جيش المسلمين في غزوة تبوك بألف بعير بأقتابها وأحلاسها(٢)، فنزلت

فيهما هذه الآية.

وقال عبد الرحمن بن سمرة: جاء عثمان رضي الله عنه بألف دينار في جيش العسرة فصبها في حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وسلم، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم يدخل فيها يده ويقلبها ويقول: (ما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم) (أ) فأنزل الله تعالى: ﴿ الّذِينَ يُنفِقُونَ أَمُولَهُمْ فِي سَبِيلِ الله في طاعة الله ﴿ ثُمَّ لَا يُتَبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنّا ﴾ وهو أن يمن عليه بعطائه فيقول: أعطيتك وهو أن يمن عليه بعطائه فيقول: أعطيتك كذا، ويعد نعمه عليه فيكدرها ﴿ وَلا آذَى ﴾ كذا، ويعد نعمه عليه فيكدرها ﴿ وَلا آذَى ﴾ وقيل: من الأذى أن يذكر إنفاقه عليه عند من وقيل: من الأذى أن يذكر إنفاقه عليه عند من لا يحب وقوفه عليه (٤).

ولذلك جاء التحذير من البخل بالنفقة في سبيل الله، فإن المؤمن لا يكون بخيلًا بماله وهو يجود بنفسه.

قال الله تعالى: ﴿ هَنَا أَنتُمْ هَنُولَا مَ تُدَعُونَ الله تعالى: ﴿ هَنَا أَنتُمْ هَنَاكُمْ اللهِ عَلَى اللهِ فَمِنكُمْ مَن يَبْخَلُ وَمَن

على ظهر البعير تحت رحله.وهو أيضًا: بساط يسط في البيت.

انظر: المصباح المنير، الفيومي ١٤٦/١.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب المناقب، ١٩ ١٩.

قال الترمذي: حديث حسن غريب من هذا الوجه.

(٤) معالم التنزيل، البغوي ١/ ٣٢٥-٣٢٦. وانظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٣٠٦-٣٠٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٣/ ٤١-٤٤.

⁽۱) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/٣٠٣.

⁽٢) الأقتاب: جمّع قتب، وهو الإكاف على قدر سنام البعير ليركب أو يحمل عليه. والأحلاس: جمع حلس، وهو كساء يجعل

يَبْخُلُ فَإِنَّمَا يَبْخُلُ عَن نَفْسِهِ وَاللَّهُ ٱلْفَيْقُ وَأَنتُكُمُ الْفَيْقُ وَأَنتُكُمُ الْفَقَى وَأَنتُكُمُ الْفَقَدَرَآةً وَإِن تَتَوَلَّوا فِيسَتَبْدِلْ فَوَمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُواْ أَمْثَلَكُمُ اللهِ إلى المحمد: ٣٨].

أي: ها أنتم -أيها المؤمنون- تدعون إلى النفقة في جهاد أعداء الله ونصرة دينه، فمنكم من يبخل بالنفقة في سبيل الله، ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه، والله تعالى هو الغني عنكم وأنتم الفقراء إليه، وإن تتولوا عن الإيمان بالله وامتثال أمره يهلكم، ويأت بقوم آخرين، ثم لا يكونوا أمثالكم في التولي عن أمر الله، بل يطيعونه ويطيعون رسوله، ويجاهدون في سبيله بأموالهم وأنفسهم(١). ثم جاءت التوجيهات الربانية في ظل الوقائع والأحداث التاريخية في حياة الأنبياء السابقين-على نبينا وعليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم- تتجه إلى الذين آمنوا يحرضهم الله تعالى فيها على القتال، وعلى الإنفاق في سبيل الله، واهب الحياة وواهب المال، والقادر على قبض الحياة وقبض المال، فهي تضحية بالنفس وبالمال.

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرُزُوا لِجَالُوتَ يَحْصَلُ ذَلَكُ ''. وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبِّنَكَ آفَدِغُ عَلَيْنَا صَبَبُرً وَفِي آيات أَخَوَيَّتُ أَقْدَهُ اللهُ اللهُ

دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضِ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَ اللهَ ذُو فَضَّلٍ عَلَى الْمُكَلِمِينَ (اللهِ قَالِمِينَ اللهَ 101-٢٥١].

فإن القوم لما سألوا الله تعالى الصبر، وأخذوا بأسباب النصر، ثم برزوا لجالوت وجنوده استجاب الله لهم ذلك الدعاء لإتيانهم بالأسباب الموجبة لذلك، ونصرهم عليهم بإذن الله، وقتل داود عليه السلام جالوت، أي: باشر قتل ملك الكفار بيده لشجاعته وقوته وصبره، عندئذ من الله عليه بتملكه على بني إسرائيل مع الحكمة، وهي النبوة المشتملة على الشرع العظيم والصراط المستقيم، ولهذا قال: ﴿وَعَلَّمَهُمْ مِمَّا يَشَاءُ ﴾ من العلوم الشرعية والعلوم السياسية، فجمع الله له الملك والنبوة، وقد كان مَنْ قبله من الأنبياء يكون الملك لغيرهم، فلما نصرهم الله تعالى اطمأنوا في ديارهم وعبدوا الله آمنين مطمئنين لخذلان أعدائهم وتمكينهم من الأرض، وهذا كله من آثار الجهاد في سبيله، فلو لم يكن لم

وفي آيات أخرى، في سور متعددة، تأتي الإشارة إلى أثر القتال في البذل والتضحية معًا، فتجمع بين الجهاد بالنفس والجهاد بالمال. وهذا أثر من آثار عقيدة الجهاد والقتال في سبيل الله تعالى، كقوله سبحانه:

⁽١) التفسير الميسر ص ١٠٥.



⁽٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٠٨.

﴿ الَّذِينَ مَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَهَدُواْ فِي سَيِيلِ اللّهِ بِأَمْوَلِهُمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظُمُ دَرَجَةً عِندَ اللّهِ وَأُوْلَئِكَ هُرُ الْفَاَيْرُونَ ۚ آَنُ ﴾ [النوبة: ٢٠].

وقوله سبحانه: ﴿ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا يَنفِقُونَ وَادِيًا إِلَّا صَغِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا صَغِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا صَغْتِبَ لَكُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَاثُواْ يَعْمَلُونَ اللَّهِ اللَّهُ اللّهُ الللّهُ الللّهُ اللّ

وقوله سبحانه: ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلَ اَدُلُمُ عَلَى جَنَوْنَ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ عَلَى جَنَوْنَ فِاللّهِ وَرَسُولِهِ عَلَى جَنَوْنَ فِاللّهِ وَرَسُولِهِ عَلَى جَنَوْنَ فِي اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجُمُهُ لَوْنَ فَي اللّهِ عَلَى اللّهِ فِأَمُولَ كُوْ وَأَنْفُسِكُمْ أَذَاكُو حَبُّلُو اللّهُ عَلَيْهُ وَلَيْدَ خِلْكُ جَنَّتِ اللّهُ وَمُنْتَ عَلَى مِن تَعْقِهَا ٱلْأَمْهُ وَمَسَكِينَ طَيِّبَةً فِي جَنَّتِ عَدْنَ ذَلِكَ اللّهِ وَمَنْتُ ﴿ الصف ١٠ - ١٣].

ثانيًا: العزة والتمكين للمجتمع الاسلامي:

من نتائج القتال وثمراته أن يحافظ المسلمون على عزتهم وكرامتهم التي يستمدونها من عزة الله تعالى القوي العزيز: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا إليّهِ يَصَعَدُ الْكَلِّمُ ٱلطَّلِكُ مِن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا إليّهِ يَصَعَدُ الْكَلِمُ ٱلطَّلِكُ مِن كَانَ يُعَمُّهُ وَٱللّهِينَ مَنْ الطَّلِكُ مِنْ فَعُمُهُ وَاللّهِينَ مَنْ الصَّلِكُ مَرْفَعُهُ وَاللّهِينَ وَمَكُمُ الطَّلِكُ مَرْفَعُهُ وَاللّهِينَ وَمَكُمُ الطَّلِينَ هَوَيَهُونُ ﴾ [فاطر: ١٠].

وهذه الآية الكريمة جاءت في سياق آيات بين الله تعالى فيها برهان الإيمان ودلائله من مشاهد الحياة النابضة في الموات، ثم انتقلت

إلى معنى نفسي ومطلب شعوري، إلى معنى العزة والرفعة والمنعة والاستعلاء. وربطت هذا المعنى بالقول الطيب الذي يصعد إلى الله، والعمل الصالح الذي يرفعه الله، إشارة إلى ما كان يمنع الكفار منه، وهو العزة الظاهرة التي كانوا يتوهمونها من حيث إنهم ما كانوا في طاعة أحد، ولم يكن لهم من يأمرهم وينهاهم، فكانوا ينحتون الأصنام، وكانوا يقولون: إن هذه آلهتنا، ثم إنهم كانوا ينقلونها مع أنفسهم، وأية عزة فوق المعية مع المعبود! فهم كانوا يطلبون العزة -وهي عدم التذلل للرسول وترك الاتباع له- فقال تعالى: إن كنتم تطلبون بهذا الكفر العزة في الحقيقة، فهي كلها لله، ومن يتذلل له فهو العزيز، ومن يتعزز عليه فهو الذليل. إن العزة كلها لله، وليس شيء منها عند أحد سواه. فمن كان يريد العزة فليطلبها من مصدرها الذي ليس لها مصدر غيره. ليطلبها عند الله، فهو واجدها هناك وليس بواجدها عند أحد، ولا في أي كنف، ولا بأي سبب ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِنَّةُ جَيعًا ﴾.

وهذه حقيقة أساسية من حقائق العقيدة الإسلامية، وهي حقيقة كفيلة بتعديل القيم والموازين، وتعديل الحكم والتقدير، وتعديل النهج والسلوك، وتعديل الوسائل والأسباب! ويكفي أن تستقر هذه الحقيقة وحدها في أي قلب؛ لتقف به أمام الدنيا

كلها عزيزًا كريمًا ثابتًا في وقفته غير مزعزع، عارفًا طريقه إلى العزة، طريقه الذي ليس هنالك سواه! إنه لن يحني رأسه لمخلوق متجبر، ولا لعاصفة طاغية، ولا لحدث جلل، ولا لوضع ولا لحكم، ولا لدولة ولا لمصلحة، ولا لقوة من قوى الأرض جميعًا. وعلام؟ والعزة لله جميعًا، وليس لأحد منها شيء إلا برضاه (١).

وقال سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ يَنَّخِذُونَ ٱلْكَفِينَ أَوْلِيَآهُ مِن دُونِ ٱلۡمُؤْمِنِينَ ۚ ٱيَبۡنَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡمِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡمِزَّةَ لِلۡمِجَيعًا ﴿ النساء: ١٣٩].

فلله العزة في الحقيقة وبالذات، وهي لرسوله بواسطة القرب من العزيز وهو الله، وللمؤمنين بواسطة قربهم من العزيز بالله وهو الرسول، وذلك لأن عزة المؤمنين بواسطة النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ولِلّهِ ٱلْمِنْ أَمِنْ وَلَرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ وَلِللّهُ عَلَيْهِ وَآله وسلم: ولِللّهُ ٱلْمِنْ أَمِنْ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ المَنافقون: ٨].

(۱) انظر: مفاتیح الغیب، الرازی ۲۲/۲۲-۲۲۸. ۲۲۲، فی ظلال القرآن ۵/۲۵۹-۲۵۳۰.

وقد جعل الله تعالى القتال في سبيله

والجهاد لإعلاء كلمته سبيلًا لهذه العزة، وطريقًا للتمكين لهذا الدين والاستعلاء به، ولهذه الأمة المستعلية بإيمانها وبربها فقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَعَزَنُوا وَلَا مَعْزَنُوا وَلَا مَعْزَنُوا وَلَا مَعْزَنُوا وَلَا عَمْزَنُوا وَلَا عَلَا عَلَا عَلَا عَلَا عَلَا عَلَا عَمْزَنُوا وَلَا عَلَا عَلَا عَلَا عَلَا عَلَا عَلَا عَلَا عَلَا عَلَيْنَا فَعَلَا عَلَا عَلَا عَلَا عَلَا عَلَا عَلَوْلُوا عَلَا عَلَا عَلَا عَمْزَنُوا وَلَا عَمْزَنُوا وَلَا عَمْزَنُوا وَلَا عَلَا عَا عَلَا عَالَا عَلَا عَلَ

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَهِـنُواْ فِي آبَتِغَآ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهُ عَلَيْمًا ﴾ [النساء: ١٠٤].

فالجهاد من الإسلام ذروة سنامه، وهو واحدٌ من طرق العزة والكرامة، كان ولا يزال السبيل الذي تسلكه الأمم للحفاظ على كيانها، ورد عادية من يعتدي عليها، ما تركه قوم إلا سلط الله عليهم عدوهم، وما تمسك به قوم إلا أعزهم الله ونصرهم.

ولنا من تاريخ أمتنا أصدق شاهد وأقوى دليل على ذلك. فهي لما كانت متمسكة بالجهاد، تقاتل في سبيل الله من كفر بالله، يحج الفرد فيها عامًا ويغزو عامًا -كما نجد في تراجم كثير من العلماء والقادة في تاريخ الإسلام - كانت أمة قوية عزيزة مرهوبة الجانب، تجبى إليها الثمرات من كل مكان، ويخاطب الخليفة فيها السحابة قائلًا: أمطرى حيث شئت فسيأتيني خراجك!!

ولما تقاعست عنه، وبدأت تتلمس المعاذير للتقاعس، وتدعو إلى السلم

الرخيصة الذليلة، عند ذلك بدأ خط سيرها في التاريخ يرجع القهقرى، وأصبحت الأمم تتناوشها من كل جانب، فتضعف مكانتها وتزول هيبتها، وتخور عزيمتها، وبدأت تنسى رسالتها، ويتحقق فيها قول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فيما رواه ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يوشك الأمم أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها)، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: (بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن؟ قال: (حب الدنيا، وكراهية الموت) ((حب الدنيا، وكراهية الموت) (()).

وليس هذا فحسب، بل راح بعضهم يحرف الكلم عن مواضعه، فيفسر الآيات على غير وجهها ويبترها عن سياقها، وأسباب نزولها لمواجهة الواقع، ويحرف الوقائع التاريخية، ويحملها ما لا تحتمل، كل هذا تسويغًا للقعود، وإمعانًا في التضليل والتحريف، ثم يدعي الحكمة ويتبجح بالتعقل لمواجهة الواقع، بحجة أننا في

مرحلة ضعف لا نستطيع الجهاد والقتال. وبدلًا من إزالة أسباب الضعف الذي يدعيه، وبدلًا من الدعوة إلى الأخذ بأسباب القوة، بدلا من هذا كله يدعو إلى ترك الجهاد (٢).

ثالثًا: كسر شوكة الأعداء وشفاء صدور المؤمنين:

بعث الله تعالى رسله، وأنزل كتبه وشرائعه، ليقوم الناس بالقسط والعدل، وختم هذه الشرائع برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم التي اختصها الله تعالى باسم «الإسلام»، فكانت هي الدين الكامل، والنعمة التامة، وجعلها مهيمنة على سائر الأديان، موجهة للناس كافة. وقد وسعت البشرية كلها بدعوتها إلى التوحيد، وحملت البشرية وكرامته، وأرست دعائم الحضارة حريته وكرامته، وأرست دعائم الحضارة الإنسانية التي تقوم على الإيمان والأخلاق، والعلم والعمل، والحق والعدل.

ولكن القوم الكافرين- من وثنيين وكتابيين وغيرهم - وقفوا من هذه الدعوة ومن نبيها وأتباعه موقف العداء والصدود والتآمر، منذ فجر هذه الدعوة. وقد حكى الله تعالى في كتابه الكريم موقف القوم وعداءهم للإسلام والمسلمين وتحالفهم جميعًا لتحقيق مآربهم ومخططاتهم، ثم

⁽۱) أخرجه أحمد في مسنده، ۸۲/۳۷، رقم ۲۲۳۹۷، وأبو داود في سننه، كتاب الملاحم، باب تداعي الأمم، ٤/ ١١١، رقم ٤٢٩٧. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٣٥٩، رقم ٨١٨٣.

⁽٢) منهج الإسلام في الحرب والسلام عثمان ضميرية، ص ١١٥-١١٦.

جاء الواقع التاريخي العملي - في القديم والحديث - يؤكد ذلك ويصدقه. وما خبر الحروب الصليبية عنا ببعيد! وفي العصر الحاضر: العدوان الهمجي على المسلمين في البوسنة والهرسك، وفي الشيشان، وفي الفلبين، وفي تايلند، وفي الهند، وفي كشمير، وفي الصومال، وفي أفغانستان، وفي العراق. وقبل ذلك: حرب الإبادة الجماعية في الاتحاد السوفيتي، وفي الهند، وفي كشمير أيضًا، وفي يوغوسلافيا، وفي الحبشة وغيرها من الأصقاع التي يسيطر فيها غير المسلمين، أو يتغلبون فيها عليهم، سواء أكانوا أقلية أو أغلبية أو أكثرية. وفي العصور السالفة: محاكم التفتيش في إسبانيا بعد سقوط دولة المسلمين في الأندلس، وحرب التتار وهجومهم على دار الإسلام والخلافة الإسلامية، وتآمر النصاري الصليبين والمغول().

(۱) يقول المستشرق الأمريكي جون.ل.لامونت: فرحت أوربا، وهللت لانتصارات المغول، ولما كان المغول - بصورة عامة - مسالمين للنصارى، ولما كان بينهم عدد كبير من النساطرة...فقد اعتبر البابا وحكام أوربا الغربية المغول حلفاء لهم في صراعهم المشترك ضد الإسلام، وكان البابا يحلم طوال سنوات عديدة بإنشاء حلف عظيم بين المغول و أوربا يسحق الدولة الإسلامية سحقًا.

انظر بحث الكاتب المذكور عن الحروب الصليبية والجهاد في: كتاب دراسات إسلامية بقلم مجموعة من المستشرقين، ترجمة

وفي العصر الحديث: يتعاون أهل الكتاب مع الملحدين أيضًا في المعسكر الشيوعي، ليواجهوا الإسلام، وليضربوا كل حركة إسلامية صادقة؛ فهم يتناسون كل خلاف يمكن أن يقوم بينهم إذا ما واجهوا الإسلام والمسلمين، فهم دائمًا متعاونون ضدنا، ومع ذلك يحاولون الخداع بالشعارات الزائفة والدعاوى العريضة الكاذبة (٢).

وهذا الصراع بين الحق والباطل، بين الإيمان والكفر، سنة قديمة وواقع غير منكور، وعندما يكون الأعداء غالبين فإنهم يستعبدون الناس ويفسدون في الأرض، فكان من الخير للبشرية كسر شوكتهم وقوتهم، وما يكون ذلك إلا بقتالهم لخضد هذه الشوكة والقوة الغاشمة، وفيها شفاء صدور قوم مؤمنين.

قال الله تعالى: ﴿ أَلَا نُقَائِلُونَ قَوْمًا لَكُونَ فَوَمًا لَكُونَ أَلَا لُقَائِلُونَ قَوْمًا لَكُونُولِ لَكَانُهُمْ وَهَكَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ

د.أنيس فريحة وزملائه من أساتذة الجامعة الأمريكية في بيروت، ص ١٣٥.

(۲) قال الرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون حين عاد من جولة قام بها في أفغانستان لدراسة الأحوال هناك، فسأله الصحفيون: ماذا وجدت هناك؟ فقال: وجدت أن نصفي أن الخطر هو الإسلام! ويجب أن نصفي خلافاتنا مع روسيا في أقرب وقت، فروسيا حعلى أي حال بلد أوروبي، والخلاف بيننا وبينها قابل للتسوية، أما الخلاف الذي لا يقبل التسوية فهو الخلاف بيننا وبين الإسلام.انظر: رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر، ص

وَهُم بَكَدُهُوكُمْ أَوَّلَكَ مَرَّةً أَتَخْشُونَهُمُّ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَغَشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ اللَّ قَنْ لِلْهُمْ لِعُذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرُكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ اللهُ وَلِيُذْهِبُ غَيْظَ قُلُوبِهِمُّ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمُ [التوبة: ١٣-١٥].

وهذه الآيات الكريمة في سياق التحضيض على قتال الكفار وأئمة الكفر، وفيها بيان ثلاثة بواعث تبعث على قتالهم.

أولها: نكثهم لأيمان عهدهم الذي كان بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم الذي كان في صلح الحديبية، عندما عاونوا حلفاءهم بني بكر على خزاعة حلفاء النبى صلى الله عليه وسلم.

وثانيها: تآمرهم وهمهم بإخراج النبي والمؤمنين من مكة؛ لئلا يبلغ دعوة ربه تبارك وتعالى.

وثالثها: بدؤهم بالفتنة، والفتنة أشد من القتل، وبدؤهم بالقتال، إذ هاجموكم في بدر من غير ضرورة تلجئهم، ولا حاجة تدفعهم إلا أن تكون كراهة لدينكم (١).

وفيها أمر قطعى بقتال الكفار مع وعد صادق بإظهار المؤمنين عليهم أكمل الظهور وأتمه، وهذا الوعد من أخبار

الغيب التفصيلية في حال معينة، فهو ليس كالوعد العام المجمل في نصر الله لرسله وللمؤمنين الذي يراد به أن العاقبة تكون لهم، ولا يمنع أن تكون الحرب قبلها سجالًا لتربية المؤمنين، وقد صدق وعده تعالى مجملًا ومفصلًا. فقوله: ﴿ وَنَشِلُوهُمْ ﴾ معناه: باشروا قتالهم كما أمرتم فإنكم إن تقاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم بتمكينها من رقابهم قتلًا، ومن صدورهم ونحورهم طعنًا، يعقبهم في قلوبهم يأسًا، لا يدع في أنفسهم قوة ولا بأسًا(٢).

قال البقاعي رحمه الله: قاتلوهم لله لا لغرض غيره، يعذبهم الله -الذي أنتم مؤمنون بأنه المتفرد -بأيديكم، بأن تقتلوهم وتأسروهم وتهزموهم، ويخزهم بالذل في الدنيا والفضيحة والعذاب في الأخرى. ولما كان ذلك قولًا لا يقتضى النصر الذي هو علو العاقبة، قال تعالى: ﴿وَيَضُرُّكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي: فترضوا ربكم بذلك لإذلاله من يعاديه بكم^(٣).

وبعد هذا تجدر الإشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى بين ثمرات القتال، وذكرت الآيات منها:

١. كسر شوكة الأعداء بما يحل فيهم من عذاب الدنيا بالقتل.

⁽۱) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١٠٤/١٠-١٧٦، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٣٠، زهرة التفاسير، أبو زهرة ٦/ ٣٢٤٦.

⁽۲) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ۱۰/ ۱۷۷.

⁽٣) نظم الدرر، البقاعي ٨/ ٣٩٦-٣٩٧.

وفيه أيضًا رد عاديتهم عن المؤمنين. قال تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ عَالَى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللهُ وَذَلَكُ بِالإِنْخَانَ فيهم. وصرح بقوله ﴿بِأَيْدِيكُمْ ﴾، أي: إنها عذاب لهم تتولونه أنتم، فقوله ﴿بِأَيْدِيكُمْ ﴾ يراد بأنفسكم، وهذا مجاز مرسل علاقته الجزئية، وعبر بالأيدي؛ لأنها هي التي بها البطش، وهي التي تحمل السيوف والرماح والنبال.

وكان العذاب في الدنيا بأيدي أهل الحق لردع أهل الباطل، وكسر شوكته، ولكيلا يستشري الشر، وتستعلى الرذائل وتنخفض الفضائل، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللّهِ النّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْنِ لَمُلّدُتُ وَمَسَاحِدُ وَمَا وَمَا وَمَا وَمَالَّونَ لَا بد من عذاب الدنيا، ولهم في الأخرة عذاب عظيم.

٢. الخزيُّ لهم والإذلال لكبريائهم.

قال تعالى: ﴿ وَتَتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللهُ اللّهِ اللّه والاسترقاق، والتتبع في الأرض، وذهاب سطوتهم وقوتهم، وانخلاع العرب من ريقتهم، وذهاب سلطانهم المادي والأدبي بالأسر، فيجتمع في حقهم العذاب الحسي والمعنوي.

وفيه أيضًا نصر للمؤمنين: ﴿وَيَصُرُكُمُ عَلَيْهِ مِنْ وَلِيَسُمُرُكُمُ عَلَيْهِ مِنْ وَلِيَسْمُرُكَ عَلَيْهِ مِنْ وَلِيَسْمُرُكِ

الله من ينصرون الحج: ٤٠].

ونصرة العبد لله بإطاعة أوامره، ومنها الأمر بالقتال، وجعل كلمة الله هي العليا، وكلمة الكفر هي السفلى، ولا يكون النصر من الله إلا إذا أتُّخِذَت أسبابه من العبد واحتسب النية.

 شفاء صدور قوم مؤمنین وإذهاب غیظ قلوبهم.

فترتاح النفوس وتسكن وتغمرها الثقة والطمأنينة: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ الثقة والطمأنينة: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ أَوْ المَّومِنينَ إِذَا الكفر ناتئ الرأس، ولم يكن من يقمعه، ويرد كيده في نحره عراها الشك أو التردد، أو محاولة تعرف الحكمة في إهمال الكفر، وتركه في عنفوانه وإيذائه، فإذا نصر الله المؤمنين شفيت صدور قوم مؤمنين، وخرج ذلك التردد، وذهبت عنها تلك الحيرة، فالله المؤمنين لأهل الكفر - يشفي تلك الصدور المؤمنة من تلك الحيرة الممضة التي قد تثير الريب، ومن ذلك الحزن والموجدة، وفيه إشارة إلى الوعد بالفتح (١).

⁽۱) والقوم المؤمنون هنا هم: خزاعة حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك أن قريشًا نقضوا العهد بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعونتهم بكرًا على خزاعة.قاله مجاهد، والسدي.وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم حين قاضى المشركين يوم الحديبية، أدخل بني كعب بن خزاعة معه في القضية، وأدخل المشركون بني بكر

﴿ وَيُدَوهِ عَلَى الْمُوبِهِ مَ والضمير في قوله تعالى ﴿ غَيْظَ قُلُوبِهِ مَ ﴾ والضمير إلى الذين تحتاج صدورهم إلى شفاء بنصر مؤزر يدفع الباطل ويزهقه، ويرفع الحق ويعليه. والغيظ انفعال النفس بالألم من رؤية الباطل عاليًا والحق مستكينًا أو مستخذيًا، فإذا انتصر الحق وعلا، ذهب ذلك الغيظ، واستقامت النفس على سواء الصراط، وارتاحت الضمائر المؤمنة.

وعبر الله في الغيظ بقوله تعالى: ﴿ وَيُدُهِبُ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾ لأن الغيظ ليس داءً، ولكنه حال عارضة من أمر قابل للزوال، والنصر يزيله. وفيه إشارة إلى حصول الوعد وتحققه. أما التردد والحيرة، وبوادر الشك، فأمراض تلازم النفوس المريضة، فعبر عن زوالها بالشفاء؛ لأنها أمراض الإيمان، والله هو الذي يشفيها، ويودعها الاطمئنان.

وإن الحرب التي تختبر فيها النفوس، ويذهب فيها غرور الذين يغترون بأصنامهم، ويحسبون أنها تنصرهم في الشدة وتغيثهم

بن كنانة معهم في القضية، ثم إن المشركين أغاروا مع بني بكر بن كنانة على بني كعب، قبل انقضاء مدة العهد، فغضب النبي صلى الله عليه وسلم لذلك فقال: والله لانتصرن لهم، فنصره الله عليهم يوم الفتح، وشفى صدور بني كعب.

انظر: الهدّاية إلى بلوغ الغاية، مكي ابن أبي طالب ٤/ ٢٩٤٤.

في الكريهة، من شأنها أن تجعل النفوس تفكر فيما هي عليه، وفيما عليه الذين يحاربونها، فيعرفون الغث من السمين، والحق من الباطل، ويتعرفون ما عليه آلهتهم التي يزعمونها، وما نصر به الإله الحق أولياءه المؤمنين، فيهتدون بعد ضلالة، ولذا قال الله إن من آثار الحرب التي يدك فيها الشر أن يتوب الله على من يشاء من عباده، فقال تعالى: ﴿ وَسَوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآهُ ﴾ فيهديه إلى الإسلام، كما فعل بأبي سفيان وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو. أي: أنهم يحسون بقوة الحق، وضعف ما هم عليه من كفر، وضلال في الأوثان فيتوبون أي يرجعون إلى الله بعد أن بعدوا عن الإيمان. والآية تشير إلى أن هذه التوبة فيضٌ من الله عليهم وصلوا إليها بعد أن ذهب غرورهم بما هم عليه من عبادة الأصنام.

وختم الله سبحانه وتعالى الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ يعلم النفوس وما يهديها، وما يوجهها إلى الحق، حكيم يضع الأمور في مواضعها، ويدبرها بحكمته، وهو العزيز الحكيم (١١).

⁽١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٦/ ٣٤٤٧.

رابعًا: دفع الفتنة وانتشار الأمن في المجتمع:

ومن ثمرات القتال والجهاد دفع الفتنة ومنع الفساد في الأرض، وهذا يقتضي انتشار الأمن والطمأنينة والاستقرار النفسي والمادي في المجتمع.

والفتنة في أصلها اللغوي تدل على ابتلاء واختبار. وأصل الفتن: إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته، واستعمل في إدخال الإنسان النار.

قال تعالى: ﴿ يَوْمَ مُمْ عَلَى النَّارِ يُمْلَنُونَ ﴿ آَنَ اللَّهُ النَّارِ يُمُلَّنُونَ ﴿ آَنَ ﴾ [الذاريات: ١٣].

وتارة يسمون ما يحصل عنه العذاب فيستعمل فيه، نحو قوله: ﴿ آلَا فِي ٱلْفِتْ نَةِ سَعَطُوا ﴾ [التوبة: ٤٩].

وتارة في الاختبار نحو: ﴿وَفَنَنَّكَ فُنُونًا ﴾ [طه: ٤٠].

وجعلت الفتنة كالبلاء في أنهما يستعملان فيما يدفع إليه الإنسان من شدة ورخاء، وهما في الشدة أظهر معنى وأكثر استعمالًا(١).

وما ورد في القرآن الكريم من تفصيل عن معنى الفتنة يمكن إجماله فيما يلي:

فقد جاءت الفتنة بمعنى ظلم الضعفاء

(۱) انظر: الوجوه والنظائر، مقاتل بن سليمان، ص٦٦، مقاييس اللغة، ابن فارس ٤٧٢/٤-٤٧٣، المفردات، الراغب الأصفهاني، ص

وسلب حقوقهم المشروعة، وسلب بيوتهم، والمذاؤهم. كما في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَكُواْ مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَدَهَدُواْ وَصَابَرُواْ إِنَ رَبَّكَ مِنْ بُعْدِهَا لَعَنْهُواْ وَصَابَرُواْ إِنَ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَنْهُورُّ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ١١٠].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ آكْبُرُ عِنْدَ اللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْ نَهُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ [البقرة: ٢١٧].

وجاءت أيضًا بمعنى الاستعلاء بالقهر والاستبداد، ومنع الناس من قبول الحق، والصد عن دين الله تعالى، كما في قوله: ﴿ فَمَا مَامَنَ لِمُوسَى إِلَّا دُرِيّةٌ مِن قَوْمِهِ عَكَ خَوْدٍ مِن فِرْعَوْنَ وَمَلِائِهِمْ أَن يَقْلِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ وَمَلِائِهِمْ أَن يَقْلِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَمَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ فِرْعَوْنَ لَمَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ فِرْعَوْنَ لَمَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ وَرَعُونَ لَمَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ إِنْهُ إِلَيْهُ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ إِلَيْهُ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ إِلَيْهُ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ إِلَيْهُ لَمِن ٱلْمُسْرِفِينَ إِلَيْهُ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ إِلَيْهُ لَمِن اللّهُ اللّهِ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّ

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمُولَهُمَّ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ ﴾ [الأنفال: ٣٦].

كما جاءت الفتنة بمعنى محاولة إضلال الناس، واستخدام الخداع والغش والطمع والإكراه ضد الحق، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِى أَوْحَيْنَا

إِلَيْكَ لِنَفْتَرِى عَلَيْمَنَا غَدْرُهُ وَإِذَا لَآتَفَدُوكَ خَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٣].

وقوله: ﴿ وَاَحْدَرُهُمْ أَن يَفْتِنُولَكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَزَلَ اللهُ إِلَيْكُ ﴾ [المائدة: ٤٩].

وجاءت أيضًا بمعنى غلبة الباطل وأهله على أتباع الحق، كما في قوله تعالى:
﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنُ فِتَنَةً فِ ٱلْأَرْضِ وَفَسَادُ
حَبِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٧٣].

وتلك المعاني للفتنة يندرج فيها الفساد والإفساد في الأرض، والصد عن دين الله الذي أنزله؛ ليكون منهجًا لتحرير الإنسان من العبودية للإنسان والهوى والشيطان؛ ليكون عبدًا لله تعالى وحده. ولذلك أمر الله تعالى بالقتال والجهاد لإزالة هذه الفتن والفساد واستئصالهما بالقوة، لإقامة دين الله تعالى وشرعه في هذه الأرض، وعندئذ تنعم البشرية بالخير والسعادة والاطمئنان والاستقرار، وتصان الحقوق والحريات بأدق المعايير الربانية (١).

ومما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَنْ لِلْوَهُمْ حَقَىٰ لَا تَكُونَ فِنْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنهَوْا فَلَاعُدُونَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّالِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٣].

قال الإمام شيخ المفسرين أبو جعفر الطبري رحمه الله: يقول تعالى ذكره لنبيه محمدٍ صلى الله عليه وسلم: وقاتلوا

المشركين الذين يقاتلونكم حتى لا تكون فتنة = يعني: حتى لا يكون شركٌ بالله، وحتى لا يعبد دونه أحدٌ، وتضمحل عبادة الأوثان والآلهة والأنداد، وتكون العبادة والطاعة لله وحده دون غيره من الأصنام والأوثان، كما قال قتادة ومجاهد والسدي وابن عباس والحسن وابن زيد وأما «الدين» الذي ذكره الله في هذا الموضع فهو العبادة والطاعة لله في أمره ونهيه (٢).

وهو الذي ذهب إليه الإمام البغوي، وزاده بيانًا فقال في تفسير هذه الآية: وقاتلوا المشركين حتى لا يكون شرك. يعني قاتلوهم حتى يسلموا، فلا يقبل من الوثني إلا الإسلام، فإن أبى قتل، ويكون الدين: أي: الطاعة والعبادة لله وحده فلا يعبد شيء

قال نافع: جاء رجل إلى ابن عمر -رضي الله عنهما- في فتنة ابن الزبير فقال: ما يمنعك أن تخرج؟ قال: يمنعني أن الله تعالى قد حرم دم أخي. قال: ألا تسمع ما ذكره الله عز وجل ﴿ وَإِن طَآبِهَنَانِ مِن المُؤْمِنِينَ اللهُ عَز وجل ﴿ وَإِن طَآبِهَنَانِ مِن المُؤْمِنِينَ الله عز وجل الحية ولا أقاتل أحب إلي لأن أعير بهذه الآية ولا أقاتل أحب إلي من أن أعير بالآية التي يقول الله عز وجل فيها: ﴿ وَمَن يَقْتُلُ مُؤْمِنَا مُتَعَمِّدًا ﴾ والساء: ٩٣].

⁽۲) جامع البيان، الطبري ۳/ ٥٧٠-٥٧١.

⁽۱) انظر: شريعة الإسلام في الجهاد والعلاقات الدولية، أبو الأعلى المودودي، ص٧٦-٨٨.

قال: ألم يقل الله: ﴿ وَقَلْلِلُوهُمْ حَتَىٰ لَا تَكُونَ فِلْنَهُ ﴾؟ قال: قد فعلنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ كان الإسلام قليلًا، وكان الرجل يفتن في دينه؛ إما يقتلونه أو يعذبونه، حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة، وكان الدين كله لله، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة، ويكون الدين لغير الله. وعن سعيد بن جبير قال: قال رجل لابن عمر: كيف ترى في قتال الفتنة؟ فقال: هل تدري ما الفتنة؟ كان محمد صلى الله عليه وسلم يقاتل المشركين، وكان الدخول عليهم فتنة وليس بقتالكم على الملك.

ثم قال تعالى: ﴿ فَإِنِ أَنهُوا ﴾ عن الكفر وأسلموا ﴿ فَلَا عُدُونَ ﴾ أي: فلا سبيل ﴿ إِلّا عَلَىٰ الْمُلْكِينَ ﴾ قاله ابن عباس. يدل عليه قوله تعالى: ﴿ أَيّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيّتُ فَلَا عُدُونَ ﴾ تعالى: ﴿ أَيّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيّتُ فَلَا عُدُونَ ﴾ والقصص: ٢٨].

وقال أهل المعاني: العدوان الظلم، أي: فإن أسلموا فلا نهب ولا أسر ولا قتل فإلا على ألفلانين وما على الشرك. وما يفعل بأهل الشرك من هذه الأشياء لا يكون ظلمًا، وسماه عدوانا على طريق المجازاة والمقابلة، كما قال: فَمَنِ اَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْمَدُواْعَلَيْهِ اللهِ البقرة: ١٩٤].

وكقوله تعالى: ﴿ وَجَزَّرُواْ سَيِّعَةِ سَيِّعَةُ مِثْلُهَا ﴾ [الشورى:٤٠].

وسمي الكافر ظالمًا؛ لأنه يضع العبادة

في غير موضعها(١).

ثم جاء هذا المعنى نفسه في سورة الأنفال، فقال الله تعالى: ﴿ وَقَائِلُوهُمْ حَقَّىٰ لَا تَكُونَ فِتَانَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِا تَكُونَ فِتَانَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِللَّهِ فَإِنِ النَّهَوَّ فَإِنَ اللَّهِ بِمَا يَمْمَلُونَ لِللَّهِ فَإِنِ النَّهَوَّ فَإِنَ اللَّهِ بِمَا يَمْمَلُونَ بَعِيدِ لِللَّهِ فَإِنِ النَّهَوَ الأَنفال: ٣٩].

وهذا أمرٌ من الله عز وجل فرض به على المؤمنين أن يقاتلوا الكفار لمنع الفتنة. قال ابن عباس وغيره: معناها الشرك -كما تقدم آنفًا-. وقال ابن إسحاق: معناها حتى لا يفتن أحد عن دينه كما كانت قريش تفعل بمكة بمن أسلم كبلال وغيره. وهو مقتضى قول عروة بن الزبير في جوابه لعبد الملك ابن مروان حين سأله عن خروج رسول الله عليه وسلم من مكة مهاجرًا. وأما قوله ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ أَي: قول عمو صنمٌ ولا وثن، ولا يعبد غيره. وقال قتادة: حتى تستوسق كلمة الإخلاص لا إله إلا الله.

قال القاضي أبو محمد بن عطية (٢٠): «وهذه المعانى تتلازم كلها».

وقال الحسن: حتى لا يكون بلاء، وهذا يلزم عليه القتال في فتن المسلمين الفئة الباغية، على سائر ما ذكرناه من الأقوال يكون المعتزل في فسحة، وعلى هذا جاء

⁽١) معالم التنزيل، البغوي ١/ ٣١٤-٣١٥.

⁽٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٥٢٨.

قول عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أما نحن فقد قاتلنا حتى لم تكن فتنة، وأما أنت وأصحابك فتريدون أن نقاتل حتى تكون فتنة!.

قال القاضي أبو محمد (١): فمذهب ابن عمر أن «الفتنة» هي الشرك في هذه الآية. وهو الظاهر، وفسر هذه الآية قول النبي صلى الله عليه وسلم: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله) (٢).

[انظر: الجهاد: مقاصد الجهاد]

موضوعات ذات صلة:

الثبات، الجهاد، الحرب، الدفع، السلم، القتل

⁽١) المصدر السابق.

⁽٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب فإن تابوا و أقاموا الصلاة: ١/ ٧٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله ١/ ٥٣.